

الْبَعْثُ

عناصر الموضوع

٢٠٨	مفهوم البعث
٢٠٩	البعث في الاستعمال القرآني
٢١١	الأنفاذ ذات الصلة
٢١٣	منهج القرآن في تقرير مبدأ البعث
٢٣٥	المنكرون للبعث بعد الموت ودوافعهم
٢٥٠	آثار الإيمان بالبعث

مفهوم البعث

أولاً: المعنى اللغوي:

الباء والعين والثاء أصل واحد، وهو الإثارة. ويقال بعثت الناقة إذا أثرتها. وقال ابن أحمر: فبعثتها تقص المقاصر بعدما ... كربت حياة النار للمتور^(١). قال الراغب: «أصل البعث: إثارة الشيء وتوجيهه»^(٢). والبعث ضربان:

❖ بشري، كبعث البعير، وبعث الإنسان في حاجة.

❖ وإلهي، وذلك ضربان:

أحدهما: إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع عن ليس (أي من عدم)، وذلك يختص به الباري تعالى، ولم يقدر عليه أحد.

والثاني: إحياء الموتى، وقد خص بذلك بعض أوليائه، كعيسى صلى الله عليه وسلم وأمثاله، ومنه قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ يَوْمَ الْبَعْثِ فَهَكَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]. يعني: يوم الحشر^(٣).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

يعرف البعث بعد الموت بأنه: «إحياء الله تعالى الأموات وإخراجهم من قبورهم وهم أحياء للحساب وللجزاء»^(٤).

وقال ابن كثير: «هو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة»^(٥). والحاصل أن البعث: «هو أن يعيد الله تعالى الإنسان بروحه وجسده كما كان في الحياة الدنيا، وهذا كائن عندما تتعلق إرادة الرب جل وعلا بذلك فيخرج الخلق جميعهم من قبورهم، وهم حفاة عراة غرل بهم، ويساقون إلى أرض الموقف لينال كل إنسان ما يستحقه من الجزاء العادل وفق ما عمل في حياته الدنيا»^(٦).

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٢٦٦.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ١٣٢.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ١٣٢، التوقيف، المناوي ص ٨٠.

(٤) مباحث العقيدة في سورة الزمر، ناصر الشيخ ص ٥٦٧.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/ ٣٩٥.

(٦) مباحث العقيدة في سورة الزمر، ناصر الشيخ ص ٥٦٧.

البعث في الاستعمال القرآني

وردت مادة (بعث) في القرآن الكريم (٦٧) مرة^(١).
والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٠	﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦]
الفعل المضارع	٢٨	﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]
فعل الأمر	٥	﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ [البقرة: ١٢٩]
اسم مفعول	٩	﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ [المطففين: ٤]
مصدر	٥	﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَبْعَثُكُمْ إِلَّا كَنْفُسٌ وَّاجِدَةٌ إِنْ اللَّهَ سَمِعَ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨]

وجاء البعث في الاستعمال القرآني على سبعة أوجه^(٢):

الأول: الإلهام: قال الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْعَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣١]. يعني فألهم الله غراباً.

الثاني: الإحياء في الدنيا: قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦]. أي: ثم أحييناكم في الدنيا.

الثالث: اليقظة من النوم: قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. أي: من النوم.

الرابع: التسليط: قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي ص ١٢٤-١٢٥.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ١١٨، ١٧٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٢٠٤-٢٠٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ٢/ ٢١٤-٢١٥.

[الإسراء: ٥]. أي: سلطنا عليكم عبادًا لنا.

الخامس: إرسال الرسول: قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].
أي: أرسل رسولاً.

السادس: النصب والتعيين: قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ﴾ [النساء: ٣٥]. أي: انصبوا حكماً.

السابع: النشور من القبور: قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧].
يعنى: ينشر من فى القبور.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإحياء:

الإحياء لغة:

قال ابن فارس: «الحاء والياء والحرف المعتل أصلان: أحدهما خلاف الموت، والآخر الاستحياء الذي هو ضد الوقاحة؛ فأما الأول فالحياة والحيوان، وهو ضد الموت والموتان، ويسمى المطر حيًّا لأن به حياة الأرض»^(١).

الإحياء اصطلاحًا:

لم يعرف أهل السنة الإحياء في مؤلفاتهم لوضوح معناه، وإنما تحدثوا عن هذا اللفظ بكلام عام يبين معناه عندهم، وقد ورد الإحياء في الشرع بمعنى نفخ الروح في الجسد، وإيجاد الحياة فيه^(٢).

الصلة بين الإحياء والبعث:

أنهما يدلان على شيء واحد وهو إعادة الحياة للميت.

٢ النشور:

النشور لغة:

الحياة بعد الموت، ينشرهم الله إنشَارًا، ونشرت الأرض تنشر نشورًا، إذا أصابها الريح فأنبثت، فهي ناشرة^(٣).

النشور اصطلاحًا:

يطلق ويراد به معنى البعث، وهو انتشار الناس من قبورهم إلى الموقف للحساب والجزاء.

الصلة بين البعث والنشور:

أن بعث الخلق اسم لإخراجهم من قبورهم إلى الموقف، ومنه قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢].

والنشور اسم لظهور المبعوثين وظهور أعمالهم للخلائق، ومنه قولك نشرت اسمك،

(١) مقاييس اللغة، ٢/ ١٢٢.

(٢) الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية، آمال العمرو، ص ١٤٠-١٤١.

(٣) العين، الفراهيدي ٦/ ٢٥٢.

ونشرت فضيلة فلان، إلا أنه قيل: أنشر الله الموتى بالألف، ونشرت الفضيلة والثوب للفرق بين المعنيين^(١).

ووجه الصلة بين البعث والنشور أنهما مرحلتان متتاليتان للموتى يوم القيامة البعث يكون بإحيائهم وإخراجهم من قبورهم والبعث يكون بانتشارهم بعد خروجهم من قبورهم كالفرش المبثوث.

٣ الإخراج:

الإخراج لغة:

أصله من «خرج خروجًا: برز من مقره أو حاله، سواء كان مقره دارًا، أو بلدًا، أو ثوبًا، وسواء كان حاله حالة في نفسه، أو في أسبابه الخارجة^(٢)».

الإخراج اصطلاحًا:

«هو البعث يوم القيامة لموقف العرض والجزاء»^(٣).

الصلة بين الإخراج والبعث:

أن البعث يشمل الإحياء والخروج، فالإخراج أخص من البعث.

(١) الفروق اللغوية، العسكري، ص ٢٨٩

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٢٧٨.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ٣٧٥.

يديه، وقال: يا محمد يبعث الله هذا بعدما أرم؟ فقال: (نعم، يبعث الله هذا ويميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم)^(١)، فنزلت هذه الآية^(٢).

«وقيل: إن هذا الكافر قال للنبي صلى الله عليه وسلم: رأيت إن سحقتها وأذريتها في الريح أيعيدها الله! فنزلت ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي من غير شيء فهو قادر على إعادتها في النشأة الثانية من شيء وهو عجم الذنب، ويقال عجب الذنب بالباء»^(٣).

«ولا شك أن الإحياء بعد أهون من الإنشاء قبل، فمن قدر على الإنشاء كان على الإحياء أقدر وأقدر، ولا احتمال لعروض العجز فإن قدرته عز وجل ذاتية لا تقبل الزوال ولا التغير بوجه من الوجوه»^(٤).

ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ «فإن قدرته كما كانت لامتناع التغير فيه، والمادة على حالها في القابلية اللازمة لذاتها»^(٥).

«وهذا بمجرد تصوره، يعلم به علما يقينا لا شبهة فيه، أن الذي أنشأها أول مرة

منهج القرآن في تقرير مبدأ البعث

سلك القرآن الكريم مسلك الاستدلال العقلي والقياس في إثبات قضية البعث بعد الموت وأنها ممكنة عقلا، وذلك من خلال النظر في المشاهدات الكونية الدالة على قدرة الله تعالى عليه، وأنه أهون من كثير مما لا ينكرون أن الله يقدر عليه، فمن ذلك ما يلي:

أولاً: الاستدلال بالنشأة الأولى:

دل القرآن الكريم على قضية البعث بقياسها على قضية مسلمة عند منكريه وهي قضية الخلق الأول، أو النشأة الأولى، فهم يقولون بأن الله هو الذي خلقهم كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ يَقُولُ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

فبين القرآن إنهم إن أقروا بذلك وأن الله هو الذي خلقهم بقدرته وأنشأهم من عدم، لزمهم الإقرار بقدرته كذلك على بعثهم بعد موتهم، وذلك في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ^(٧٩) [يس: ٧٨ - ٧٩]

ذكر الواحدي: «عن أبي مالك: أن أبي بن خلف الجمحي جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل ففته بين

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک، رقم ٣٦٠٦. وقال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم.

(٢) أسباب النزول، ص ٣٦٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥٨/١٥.

(٤) روح المعاني، الألوسي، ٥٣/١٢.

(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢٧٤/٤.

قادر على الإعادة ثاني مرة، وهو أهون على القدرة إذا تصوره المتصور»^(١).

ومما يدل على هذا المعنى قوله تعالى:

﴿نَحْنُ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۚ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(١١)

[الواقعة: ٦٠-٦٢].

قال النسفي: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا

تَعْلَمُونَ﴾ وعلى أن ننشئكم في خلق لا

تعلمونها وما عهدتم بمثلها، يعني أنا نقدر

على الأمرين جميعاً على خلق ما يماثلكم

وما لا يماثلكم، فكيف نعجز عن إعادتكم؟

ويجوز أن يكون أمثالكم جمع مثل، أي على

أن نبذل ونغير صفاتكم التي أنتم عليها في

خلقكم وأخلاقكم، وننشئكم في صفات لا

تعلمونها»^(٢).

وقال المراغي: «أي نحن قسمنا الموت

بينكم، ووقتنا موت كل واحد بميقات معين

لا يعدوه بحسب ما اقتضته مشيئتنا المبنية

على الحكم البالغة، وما نحن بعاجزين عن

أن نذهبكم ونأتي بأشباهكم من الخلق،

وننشئكم فيما لا تعلمون من الأطوار

والأحوال التي لا تعهدونها.. ثم ذكر دليلاً

آخر على البعث فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ

الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي لقد علمتم أن الله

أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة وهي البداية قادر على النشأة الأخرى وهي الإعادة بطريق الأولى»^(٣).

قال الشوكاني: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ

الْأُولَىٰ﴾ وهي ابتداء الخلق من نقطة، ثم من

علقة، ثم من مضغة ولم تكونوا قبل ذلك

شيئاً، وقال قتادة والضحاك: يعني خلق آدم

من ترابٍ فلولا تذكرون أي: فهلا تذكرون

قدرة الله سبحانه على النشأة الأخيرة

وتقيسونها على النشأة الأولى»^(٤).

وقال الصابوني: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي

فهلا تتذكرون بأن الله قادر على إعادتكم

كما قدر على خلقكم أول مرة؟ ﴿أَوَلَا

يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ

شَيْئاً﴾ [مریم: ٦٧].^(٥)

وقد رد القرآن الكريم على من أنكروا

البعث كذلك وسألوا سؤال استبعاد لا

سؤال استفهام أبيعثون بعد موتهم وآباؤهم

بعد أن صاروا عظاما ورفاتا من جديد ردا

مفحما غاية في البيان والإيجاز والإعجاز

والإفحام.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفَاتًا

(٣) تفسير المراغي، ٢٧ / ١٤٦

(٤) فتح القدير، ٥ / ١٨٩

(٥) صفوة التفاسير، ٣ / ٢٩٥

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٦٩٩.

(٢) مدارك التنزيل، ٣ / ٤٢٦

رطوبة الحي كالحجارة والحديد، فهو كقول القائل: أطمع في وأنا ابن فلان، فيقول: كن ابن السلطان أو ابن من شئت، فسأطلب منك حقي»^(٢).

«وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يَعِيدُنَا؟﴾ يخبر تعالى رسوله أن منكري البعث سيقولون له مستبعدين البعث: من يعيدنا؟ وعلمه الجواب فقال له: ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ﴾ أي خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وهو جواب مسكت فالذي خلقكم ثم أماتكم هو الذي يعيدكم كما بدأكم وهو أهون عليه»^(٣).

«والمعنى أنه لما قال لهم: كونوا حجارة أو حديدًا أو شيئًا أبعد في قبول الحياة من هذين الشيئين فإن إعادة الحياة إليه ممكنة، فعند ذلك قالوا: من هذا الذي يقدر على إعادة الحياة إليه، قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعني أن القول بصحة الإعادة فرع على تسليم أن خالق الحيوانات هو الله تعالى، فإذا ثبت ذلك فنقول: إن تلك الأجسام قابلة للحياة والعقل، وإله العالم قادر لذاته، عالم لذاته فلا يبطل علمه وقدرته البتة، فالقادر على الابتداء يجب أن يبقى قادرًا على الإعادة، وهذا كلام تام وبرهان قوي»^(٤).

أَوَّلًا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْتُمُونَ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿٥١﴾ [الإسراء: ٤٩ - ٥١].

«وقوله: ﴿أَوَّلًا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ قالوا إنكارا منهم للبعث بعد الموت: إنا لمبعوثون بعد مصيرنا في القبور عظاما غير منحطمة، ورفاتا منحطمة، وقد بلينا فصرنا فيها ترابا، خلقا منشأ كما كنا قبل الممات جديدا، نعاد كما بدئنا، فأجابهم جل جلاله يعرفهم قدرته على بعثه إياهم بعد مماتهم، وإنشائه لهم كما كانوا قبل بلاهم خلقا جديدا، على أي حال كانوا من الأحوال، عظاما أو رفاتا، أو حجارة أو حديدًا، أو غير ذلك مما يعظم عندهم أن يحدث مثله خلقا أمثالهم أحياء، قل يا محمد ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْتُمُونَ فِي صُدُورِكُمْ﴾»^(١).

«وتقرير الشبهة: أن الإنسان إذا مات جفت عظامه وتناثرت وتفرقت في جوانب العالم، واختلطت بسائطها بأمثالها من العناصر، فكيف يعقل بعد ذلك اجتماعها بأعيانها، ثم عود الحياة إلى ذلك المجموع؟ فأجاب سبحانه عنهم بأن إعادة بدن الميت إلى حال الحياة أمر ممكن، ولو فرضتم أن بدنه قد صار أبعد شيء من الحياة ومن

(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٢٧٨.

(٣) أيسر التفاسير، الجزائري، ٣/ ٢٠١، ٢٠٢.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٠/ ٣٥٣.

(١) جامع البيان، الطبري، ١٧/ ٤٦٣.

ثانيًا: القياس العقلي:

دلل القرآن الكريم على قضية البعث بعد الموت بالقياس العقلي الجلي على قضية بدء الخلق، وبين أنه قياس بطريق الأولى، فكل من صدق بأنه تعالى ابتداء خلق الإنسان وهو أمر فطري لم يتنازع فيه المشركون، لزمه بطريق الأولى التصديق بقدرته تعالى على إعادته مرة أخرى، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾

[الروم: ٢٧].

قال القرطبي: «أما بدء خلقه فبعلوقه في الرحم قبل ولادته، وأما إعادته فأحياؤه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث، فجعل ما علم من ابتداء خلقه دليلًا على ما يخفى من إعادته، استدلالًا بالشاهد على الغائب، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾»^(١).
«والهين هو ما لا يتعب فيه الفاعل، والأهون ما لا يتعب فيه الفاعل بالطريق الأولى، فإذا قال قائل إن الرجل القوي لا يتعب من نقل شعيرة من موضع وسلم السامع له ذلك، فإذا قال فكونه لا يتعب من نقل خردلة يكون ذلك كلامًا معقولًا مبقًى على حقيقته»^(٢).

قال القرطبي: «ووجهه أن هذا مثل ضربه الله تعالى لعباده، يقول: إعادة الشيء على

الخلائق أهون من ابتدائه، فينبغي أن يكون البعث لمن قدر على البداية عندكم وفيما بينكم أهون عليه من الإنشاء»^(٣).
كذلك برهن القرآن الكريم على قضية البعث بحكمة الله وعدله اللذين يقتضيان محاسبة الناس على أعمالهم في الدنيا في دار أخرى بعد موتهم، وإلا كان وجودهم في هذه الحياة الدنيا ضربًا من العبث يتزده الله تعالى عنه.

من ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(١٧) فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ^(١٨) [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

قال الزحيلي: «﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثًا، أي لعبًا وباطلا بلا قصد ولا حكمة لنا، بل خلقناكم للعبادة والتهذيب والتعليم وإقامة أوامر الله تعالى، وهل ظننتم أنكم لا تعودون إلينا في الدار الآخرة للحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].
أي: هملًا.

﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ أي: تنزهه وتقدس الله صاحب الملك الواسع، الثابت الذي لا

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٢٠

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/ ٩٦

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٢١-٢٢.

الموتى من البشر.

وقد تكرر هذا المثل في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا نَقَالًا سَقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: ٥٧].

«يلفت الله تعالى نظر المشركين المنكرين للبعث والحساب والعقاب، إلى أنه يرسل الرياح فتثير السحاب، وتجعله يتكون في جو السماء، ثم تسوقه الرياح إلى الأرض الموات، التي لا نبات فيها، فيفرغ السحاب ما فيه من فوق هذه الأرض الميتة، فتحي الأرض بالماء، وتهتز وتربو، ويخرج منها النبات، وكما أحيا الله تعالى الأرض الميتة، وأخرج منها النبات النضير، كذلك يحيي الله الأموات من البشر، ويخرجهم من قبورهم يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم»^(٤).

قال السعدي: «يبين تعالى أثرا من آثار قدرته، ونفحة من نفحات رحمته فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: الرياح المبشرات بالغيث، التي تثيره بإذن الله من الأرض، فيستبشر الخلق برحمة الله، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله، ﴿حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ﴾ الرياح ﴿سَحَابًا

يزول، أن يخلق شيئا عبثا، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك، وهو ذو العرش العظيم الحسن البهي الذي يدبر فيه نظام الكون بحكمة ومقصد سام»^(١).

«وبيان كونه عبثا أنه لو خلق الخلق فأحسن المحسن وأساء المسيء ولم يلق كل جزاءه لكان ذلك إضاعة لحق المحسن وإغضاء عما حصل من فساد المسيء فكان ذلك تسليطا للعبث»^(٢).

ومثله قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]

«وتقريره أن إعطاء القدرة والآلة والعقل بدون التكليف والأمر بالطاعة والنهي عن المفساد يقتضي كونه تعالى راضيا بقبائح الأفعال، وذلك لا يليق بحكمته، فإذا لا بد من التكليف والتكليف لا يحسن ولا يليق بالكريم الرحيم إلا إذا كان هناك دار الثواب والبعث والقيامة»^(٣).

ثالثا: الاستشهاد بالدورة النباتية:

استدل القرآن الكريم على إمكان البعث بما هو مشاهد من إحياء الأرض الميتة الجرز بتزول الماء عليها فتهتز بالخضرة والحياة بعد موتها، فمن قدر على إحياء تلك الأرض بعد موتها قادر لا محالة على إحياء

(١) التفسير المنير، الزحيلي ١١٣/١٨.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٨/١٣٤.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٠/٧٣٧.

(٤) أيسر التفاسير، أسعد حومد، ٣/١٠٦٨.

فَقَالَا ﴿قَدْ أَثَارَهُ بَعْضُهَا، وَأَلْفَهُ رِيحٌ أُخْرَى، وَالْحَقُّ رِيحٌ أُخْرَى ﴿سُقْنَةُ لَيْلٍ مَيِّتٍ﴾ قَدْ كَادَتْ تَهْلِكُ حَيَوَانَاتِهِ، وَكَادَ أَهْلُهُ أَنْ يَبْسُوَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، ﴿فَأَنْزَلْنَاهُ﴾ أَي: بِذَلِكَ الْبَلَدِ الْمَيِّتِ ﴿الْمَاءَ﴾ الْغَزِيرِ مِنْ ذَلِكَ السَّحَابِ وَسَخَّرَ اللَّهُ لَهُ رِيحًا تَدْرُهُ وَتُفَرِّقُهُ بِإِذْنِ اللَّهِ، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ فَأَصْبَحُوا مُسْتَبْشِرِينَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ، رَاتِعِينَ بِخَيْرِ اللَّهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أَي: كَمَا أَحْيَيْنَا الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا بِالنبات، كَذَلِكَ نَخْرِجُ الْمَوْتَى مِنْ قُبُورِهِمْ، بَعْدَ مَا كَانُوا رَفَاتًا مَتَمِزِقِينَ، وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ وَاضِحٌ، فَإِنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، فَمَنْكَرُ الْبَعْثِ اسْتِبْعَادًا لَهُ - مَعَ أَنَّهُ يَرَى مَا هُوَ نَظِيرُهُ - مِنْ بَابِ الْعِنَادِ، وَإِنْكَارِ الْمَحْسُوسَاتِ^(١).

وقال الزحيلي: «هذه آية اعتبار واستدلال على وجود البعث، وفهم الدليل بسيط جداً؛ فإن الله تعالى كما أنه يحيي الأرض وينبتها نباتاً حسناً بالمطر فإنه قادر على إعادة الموتى أحياء يوم القيامة، كإحياء الأرض بعد موتها.. وإحياء الأرض بعد موتها بالنباتات يحدث بقدرة الله الخالق، فكذلك إعادة الحياة إلى الأجساد يكون بقدرة الله أيضاً»^(٢).

وقد جمع بين الطريقتين السابقتين في إثبات البعث قوله تعالى: ﴿يَكَايُهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّينَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَن يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَن يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَذَرَى الْأَرْضَ هَامِئَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج: ٥].

﴿يَكَايُهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾ إقامة للحجة التي تلقم المجادلين في البعث حجراً إثر الإشارة إلى ما يؤول إليه أمرهم، واستظهر أن المراد بالناس هنا الكفرة المجادلون المنكرون للبعث، والتعبير عن اعتقادهم في حقه بالريب أي الشك مع أنهم جازمون بعدم إمكانه إما للإيذان بأن أقصى ما يمكن صدوره عنهم وإن كانوا في غاية ما يكون من المكابرة والعناد هو الارتياب في شأنه، وإما الجزم بعدم الإمكان فخارج من دائرة الاحتمال كما أن تنكيره وتصديره بكلمة الشك للإشعار بأن حقه أن يكون ضعيفاً مشكوك الوقوع، وإما للتنبيه على أن جرمهم ذلك بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح دلائل الإمكان ونهاية قوتها، وإنما لم يقل وإن ارتبتم في البعث للمبالغة في

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٩٢.

(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي، ١/ ٦٧٨.

بتنزيه أمره عن شائبة وقوع الريب والإشعار بأن ذلك إن وقع فمن جهتهم لا من جهته، واعتبار استقرارهم فيه وإحاطته بهم لا ينافي اعتبار ضعفه وقلته لما أن ما يقتضيه ذلك هو دوام ملابتهم به لا قوته وكثرته^(١).

«فيا أيها البشر، إن كنتم في شك من إمكان البعث ومجيئه، فانظروا إلى بدء خلقكم، فمن قدر على البدء قدر على الإعادة، بدليل مراحل خلق الإنسان السبع.. وهذا هو الدليل الأول على قدرة الله على البعث، يعتمد على التأمل في مراحل خلق الإنسان، والدليل الثاني: هو خلق النبات المشابه لخلق الإنسان، فإذا تأمل المرء أحوال الأرض، يراها أولاً ميتة يابسة لا نبات فيها ولا زرع، فإذا أنزل الله عليها المطر تحركت بالنبات، ودبت فيها الحياة، وارتفعت وانتفخت بالماء والنبات، ثم أنبتت من كل صنف من النبات والزرع ما هو جميل المنظر، طيب الرائحة، متناسق الألوان أو مختلفها، لاختلاف ألوان الثمار والزرع والطعوم والروائح، والأشكال والمنافع، كما يلاحظ كل إنسان في فصل الربيع والصيف وغيرهما»^(٢).

بحالة مشاهدة فلذلك افتتح بفعل الرؤية، بخلاف الاستدلال بخلق الإنسان فإن مبدأه غير مشاهد قليل في شأنه فإننا خلقناكم من تراب الآية، ومحل الاستدلال من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَلَآءَ اهْتَزَّتْ﴾، فهو مناسبٌ قوله في الاستدلال الأول فإننا خلقناكم من تراب، فهمود الأرض بمنزلة موت الإنسان واهتزازها وإنباتها بعد ذلك يماثل الإحياء بعد الموت»^(٣).

فهذان الدليلان القاطعان، يدلان على هذه المطالب الخمسة، وهي هذه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٤) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ [الحج: ٦-٧]^(٥).

رابعاً: الاستدلال بوقائع حصل فيها الإحياء بعد الموت:

استدل القرآن الكريم على قضية البعث بوقائع حدثت فعلاً، ووقع فيها أمر الإحياء بعد الموت في هذه الحياة الدنيا بشكل معين، وهي وقائع عديدة ذكرها الله تعالى في كتابه ليدلنا بها على إمكان وقوع إحياء الموتى حتى في هذه الحياة الدنيا، وأن من قدر على ذلك فهو قادر لا محالة على إحياء

و هذا ارتقاء في الاستدلال على الإحياء بعد الموت بقياس التمثيل لأنه استدلالٌ

(١) روح المعاني، الألوسي، ١١١/٩.

(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي، ١٦٢٦/٢ - ١٦٢٧ مختصراً.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٠٣/١٧.

(٤) تفسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٥٣٣ - ٥٣٤.

الموتى جميعا يوم القيامة، فمن هذه الوقائع:

١. قصة الرجل الذي قتل في بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَ جُنُودُنَا هُزُوا قَالَ أَهَوَئُذٍ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَائِيَّتِكَ ذَلِكَ فَأَفْصَلُوا مَا تَوْمَرُونَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٧٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٨٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتُ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَآذَرْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٨٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ الْآيَاتِ وَلِيُرِيَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٦٧ - ٧٣].

«وحكاية ذلك: أن رجلاً موسراً قتله بنو عمه ليرثوه، وطرحوه عند باب المدينة، ثم جاءوا يطالبون بديته؛ فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة، ويضربوا القاتل ببعضها؛ فحييا ويخبرهم بقاتله. فضربوه بذنبها، فحي وقال: قتلتني فلان وفلان - يريد ابني عمه -

فاقتصص منهما، وحرما ميراثه»^(١).

«روي عن ابن عباسٍ وسائر المفسرين أن رجلاً من بني إسرائيل قتل قريباً لكي يرثه ثم رماه في مجمع الطريق ثم شكاً ذلك إلى موسى عليه السلام فاجتهد موسى في تعرف القاتل، فلما لم يظهر قالوا له: سل لنا ربك حتى يبينه، فسأله فأوحى الله إليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فتعجبوا من ذلك ثم شددوا على أنفسهم بالاستفهام حالاً بعد حالٍ واستقصوا في طلب الوصف فلما تعينت لم يجدوها بذلك النعت إلا عند إنسانٍ معينٍ ولم يبعها إلا بأضعاف ثمنها، فاشتروها وذبحوها وأمرهم موسى أن يأخذوا عضواً منها فيضربوا به القاتل، ففعلوا فصار المقتول حياً وسمى لهم قاتله وهو الذي ابتدأ بالشكاية فقتلوه قوداً»^(٢).

وقد اختلفوا في المخاطب بقوله تعالى: ﴿وَرَبِّكُمْ آيَاتِهِ﴾ «قال القفال: ظاهره يدل على أن الله تعالى قال هذا لبني إسرائيل أي: إحياء الله الموتى يكون مثل هذا الذي شاهدتم؛ لأنهم وإن كانوا مؤمنين بذلك إلا أنهم لم يؤمنوا به إلا من طريق الاستدلال، ولم يشاهدوا شيئاً منه، فإذا شاهدوه اطمأنت قلوبهم، وانتفت عنهم الشبهة، فأحيا الله القاتل عياناً، ثم قال لهم: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ

(١) أوضح التفاسير، ابن الخطيب ١/ ١٣

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٤٣٥

٢. قصة الذين خرجوا من ديارهم
فرارا من الموت.

ومن الوقائع التي استدلت بها القرآن على
صدق وقوع البعث بعد الموت ووقعت فعلا
ما حدث لألوف من بني إسرائيل ذكرهم
القرآن في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا
وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنُسُلِهِمْ
أَلْتَمَتْ لَهُمُ الْبُتُورُ ۚ فَمَا تَصِفُ
لَهُمْ أَجْرَهُمْ إِلَّا تُسَوِّدُ وُجُوهَهُمْ
وَتُصَوِّرُ لَهُمُ الْحَرُورَ ۚ أُولَٰئِكَ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
فَصَحَّفَ لَهُمْ الدِّينَ ۚ فِئْتَابُ اللَّهِ
وَالْعَذَابُ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٣]

«يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله
عليه وسلم فيقول: ألم ينته إلى علمك قصة
الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت
وهم ألوف، وهم أهل مدينة من مدن بني
إسرائيل أصابها الله تعالى بمرض الطاعون
ففروا هاربين من الموت فأماهم الله عن
آخريهم ثم أحياهم بدعوة نبيهم حزقيل عليه
السلام»^(٣).

«وذكر غير واحد من السلف أن هؤلاء
القوم كانوا أهل بلدة في زمان بني إسرائيل
استوخموا أرضهم وأصابهم بها وباء شديد
فخرجوا فرارًا من الموت إلى البرية، فنزلوا
واديًا أفيح، فملؤا ما بين عدوتيهِ فأرسل
الله إليهم ملكين أحدهما من أسفل الوادي
والآخر من أعلاه فصاحا بهم صيحة واحدة
فماتوا عن آخرهم مودة رجل واحد فحيزوا

(٣) أيسر التفاسير، الجزائري ١ / ٢٣١.

الْمَوْتِ﴾، أي: كما أحيها في الدنيا يحييها
في الآخرة من غير احتياج إلى مادة ومثال
وآلة التي لا يخلو منها المستدل»^(١).

وقال أبو جعفر الطبري: «وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ
يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ مخاطبة من الله عباده
المؤمنين، واحتجاج منه على المشركين
المكذبين بالبعث، وأمرهم بالاعتبار بما كان
منه جل ثناؤه من إحياء قتيل بني إسرائيل
بعد مماته في الدنيا، فقال لهم تعالى ذكره:
أيها المكذبون بالبعث بعد الممات، اعتبروا
بإحيائي هذا القتيل بعد مماته، فإني كما
أحييته في الدنيا، فكذلك أحيي الموتى بعد
مماتهم، فأبعثهم يوم البعث، وإنما احتج
جل ذكره بذلك على مشركي العرب، وهم
قوم أميون لا كتاب لهم، لأن الذين كانوا
يعلمون علم ذلك من بني إسرائيل كانوا
بين أظهرهم، وفيهم نزلت هذه الآيات،
فأخبرهم جل ذكره بذلك، ليتعرفوا علم من
قبلهم..»

﴿وَيُرِيكُمْ﴾ الله أيها الكافرون
المكذبون بمحمد صلى الله عليه وسلم،
وبما جاء به من عند الله من آياته، و
﴿آيَاتِهِ﴾: أعلامه وحججه الدالة على
نبوته لتعقلوا وتفهموا أنه محق صادق،
فتؤمنوا به وتتبعوه»^(٢).

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي
١٨١ / ٢.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢ / ٢٣٢.

إلى حظائر وبني عليهم جدران وقبور وفنوا وتمزقوا وتفرقوا فلما كان بعد دهر مر بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له: حزقيل فسأل الله أن يحييهم على يديه فأجابه إلى ذلك وأمره أن يقول: أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعي فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض، ثم أمره فنادى: أيتها العظام إن الله يأمرك بأن تكتسي لحماً وعصباً وجلداً. فكان ذلك، وهو يشاهده ثم أمره فنادى: أيتها الأرواح إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمه. فقاموا أحياء ينظرون قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة، وهم يقولون: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لا إله إلا أنت، وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة^(١).

«فكما كان قادراً على إحيائهم في الدنيا هو قادرٌ على إحياء المتوفين في الآخرة، فيجازي كلًّا منهم بما عمل. ففي هذه القصة تنبيهٌ على المعاد، وأنه كائنٌ لا محالة، فيليق بكل عاقلٍ أن يعمل لمعاده بأن يحافظ على عبادة ربه، وأن يوفي حقوق عباده»^(٢).

«إن الله لذو فضل على الناس فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة، وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع

المعاد الجسماني يوم القيامة»^(٣).

٣. قصة صاحب القرية.

ومن الوقائع التي تؤكد إمكان البعث بعد الموت قصة صاحب القرية.

قال تعالى: ﴿أَوَكَلَّيْ مَرَّةً عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُعْمَى هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩].

اختلف المفسرون في صاحب القصة الذي مر على القرية، هل كان نبياً عبداً صالحاً أو كان كافراً شاكاً في البعث، كما اختلفوا في اسمه، «واختلفوا في القرية المذكورة في الآية، لكن القرآن ضرب صفحا عن تعيين اسم الشخص واسم القرية كعادته في مثل هذه القصص التي يكون المقصد القرآني فيها هو إظهار الحكمة من ذكرها وما تشتمل عليه من المواعظ والآيات والعبر، ولا تخص شخوصها وزمانها ومكانها، والذي يعيننا هنا هو دلالة هذه القصة على قدرة الله على البعث، وإيقاعه فعلاً أمام من استبعده

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٦٦١.

(٢) البحر المحیط، ابن حبان، ٢/ ٥٥٩، ٥٦٠.

(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٤١٣

العصير استحال ولا التين حمض ولا أنتن ولا العنب تعفن ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ أي: كيف يحييه الله عز وجل وأنت تنظر ﴿وَلَنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي: دليلا على المعاد^(١).

«فأجيب: بل لبثت مائة عام، فانظر لترى دلائل قدرتنا إلى طعامك وشرابك طوال هذه المدة، لم يتغير ولم يفسد، مع أن العادة جرت بفساد مثله بمضي مدة قليلة، وانظر أيضا لترى الدليل على قدرتنا إلى حمارك كيف نخرت عظامه وتقطعت أوصاله، لتبين تطاول مرور الزمان عليه وعليك وأنت راقد أو نائم فعلنا بك ما فعلنا لتعائن ما استبعدته، ولتتيقن ما تعجبت منه، ولنجعلك دليلا على المعاد، وآية دالة على تمام قدرتنا على البعث يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا نَبْعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفِيسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

فقوله: ﴿وَلَنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ دليل على البعث بعد الموت^(٢).

٤. قصة إبراهيم عليه السلام مع الطير.

كما استدل القرآن على وقوع البعث بعد الموت بما وقع لسيدنا إبراهيم عليه السلام حين سأل الله أن يريه إحياء الموتى عيانا،

ليكون ذلك دليلا له ولكل من سمع القصة على إثبات قدرة الله على إحياء الموتى.

وتفسيرها كما قال ابن كثير: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أي: ليس فيها أحد من قولهم: خوت الدار تخوي خواء وخويا، وقوله: ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي: ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها، فوقف متفكرا فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة وقال: ﴿إِنِّي يَحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا تِلْكَ مِائَةٌ عَامٍ ثُمَّ بَعَثُوهُ﴾، قال: وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته وتكامل ساكنوها وتراجعت بنو إسرائيل إليها، فلما بعثه الله عز وجل بعد موته كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيي بدنه؟

فلما استقل سويا قال الله له -أي بواسطة الملك-: ﴿كَمْ لَيْتَ قَالَ لَيْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قالوا: وذلك أنه مات أول النهار ثم بعثه الله في آخر نهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَيْتَ مِائَةً عَامٍ فَأَنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ وذلك: أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير فوجده كما فقدته لم يتغير منه شيء، لا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦٨٨/١.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ٣/٣٣.

فاستجاب الله له وأجرى له الأمر على يديه بإذنه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تَوَمِّنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِنْ لِيُطَمِّينَ قُلُوبِي قَالَ فَخَذَ مِنْ أَجَلٍ مِّنَ الطَّيْرِ فَصَرَّهُنَّ لِيَلِجَ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلَ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقد تكلم بعض المفسرين في سبب سؤال إبراهيم لربه أن يريه كيفية إحياء الموتى وهل كان شكاً منه في البعث أو كان طلباً للترقي في درجات اليقين؟ وقد ذهب جمهور المفسرين إلى الثاني واستبعاد الأول لكونه لا يليق بمقام النبوة فضلاً عن الخلعة.

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «وقد فهم بعض الناس من هذا السؤال أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كان قلقاً مضطرباً في اعتقاده بالبعث وذلك شك فيه، وما أبلد أذهانهم وأبعد أفهامهم عن إصابة المرمى، وقد ورد في حديث الصحيحين نحن أولى بالشك من إبراهيم أي أننا نقطع بعدم شكه كما نقطع بعدم شكنا أو أشد قطعاً، نعم ليس في الكلام ما يشعر، بالشك، فإنه ما من أحد إلا وهو يؤمن بأمور كثيرة إيماناً يقينياً وهو لا يعرف كيفيتها ويود لو يعرفها»^(١).

قال القرطبي: «ولا يجوز على الأنبياء

صلوات الله عليهم مثل هذا الشك فإنه كفر، والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث. وقد أخبر الله تعالى أن أنبياءه وأوليائه ليس للشيطان عليهم سبيل فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

وقال اللعين: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠].

وإذا لم يكن له عليهم سلطنة فكيف يشكهم، وإنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها، فأراد أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين، فقله: «أرني كيف» طلب مشاهدة الكيفية^(٢).

وقال ابن عاشور: «فإن إبراهيم لفرط محبته الوصول إلى مرتبة المعاينة في دليل البعث رام الانتقال من العلم النظري البرهاني، إلى العلم الضروري، فسأل الله أن يريه إحياء الموتى بالمحسوس»^(٣).

وما وقع لخليل الله إبراهيم عليه السلام من إجابة الله دليل واقعي على البعث بعد الموت، قال السعدي: «وهذا فيه أيضاً أعظم دلالة حسية على قدرة الله وإحيائه الموتى للبعث والجزاء، فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم أنه سأل أن يريه ببصره كيف يحيي

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٣/ ٢٩٩.

(٣) التحرير والتنوير، ٣/ ٣٨.

(١) تفسير المنار، ٣/ ٤٦.

ما كانت أولاً وبقيت بلا رءوس، ثم كرر النداء فجاءته سعيًا، أي عدواً على أرجلهم. ولا يقال للطائر: (سعى) إذا طار إلا على التمثيل، قاله النحاس. وكان إبراهيم إذا أشار إلى واحدٍ منها بغير رأسه تباعد الطائر، وإذا أشار إليه برأسه قرب حتى لقي كل طائر رأسه، وطارَت بإذن الله. وقال الزجاج: المعنى ثم اجعل على كل جبلٍ من كل واحدٍ جزءاً^(٢).

وقال الألوسي: «وفي الآية دليل لمن ذهب إلى أن إحياء الموتى يوم القيامة بجمع الأجزاء المتفرقة وإرسال الروح إليها بعد تركيبها وليس هو من باب إعادة المعدم الصفر لأنه سبحانه بين الكيفية بالتفريق ثم الجمع وإعادة الروح ولم يعدم هناك سوى الجزء الصوري والهيئة التركيبية دون الأجزاء المادية»^(٣).

٥. ما أجراه الله تعالى على يد المسيح عليه السلام.

ومن تلك الوقائع التي حدث فيها إحياء الموتى ما أجراه الله تعالى على يد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام معجزة له، وقد حكى القرآن الكريم ذلك.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُم مِّن

الموتى، لأنه قد تيقن ذلك بخبر الله تعالى، ولكنه أحب أن يشاهده عياناً ليحصل له مرتبة عين اليقين.

فلهذا قال الله له: ﴿أَوَلَمْ تَوْمُنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمِئِنَّ قُلُوبِي﴾ وذلك أنه بتوارد الأدلة اليقينية مما يزداد به الإيمان ويكمل به الإيقان ويسعى في نيله أوّل العرفان، فقال له ربه ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: ضمهن ليكون ذلك بمرأى منك ومشاهدة وعلى يديك. ﴿ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي: مزقهن، اخلط أجزاءهن بعضها ببعض، واجعل على كل جبل، أي: من الجبال التي في القرب منه، جزء من تلك الأجزاء ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي: تحصل لهن حياة كاملة، ويأتينك في هذه القوة وسرعة الطيران، ففعل إبراهيم عليه السلام ذلك وحصل له ما أراد^(١).

«فأخذ هذه الطير حسب ما أمر وذكاها، ثم قطعها قطعاً صغاراً، وخلط لحوم البعض إلى لحوم البعض مع الدم والريش حتى يكون أعجب، ثم جعل من ذلك المجموع المختلط جزءاً على كل جبل، ووقف هو من حيث يرى تلك الأجزاء وأمسك رءوس الطير في يده، ثم قال: تعالين بإذن الله، فتطيرت تلك الأجزاء وطار الدم إلى الدم والريش إلى الريش حتى التأمّت مثل

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٣/ ٣٠٠، ٣٠١.

(٣) روح المعاني، ٢/ ٣٠.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١١٢.

الطِينَ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا
يَاذَنْ اللَّهُ وَأُتِيَ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُتِيَ
الْمَوْقَ يَاذَنْ اللَّهُ [آل عمران: ٤٩].

«إحياء الموتى معجزةٌ للمسيح أيضًا،
كنفخ الروح في الطير المصور من الطين،
فكان إذا أحيأ ميتًا كلمه ثم رجع ميتًا،
وورد في الأناجيل أنه أحيأ بتًا كانت ماتت
فأحيأها عقب موتها. ووقع في إنجيل متى
في الإصحاح السابع عشر أن عيسى صعد
الجبل ومعه بطرس ويعقوب ويوحنا أخوه
وأظهر لهم موسى وإيلياء يتكلمان معهم،
وكل ذلك بإذن الله له أن يفعل ذلك»^(١).

«قال الكلبي: كان عليه الصلاة والسلام
يحيي الموتى بيا حي يا قيوم أحيأ عازر
وكان صديقًا له فعاش وولد له، ومر على
ابن عجوز ميت فدعا الله تعالى فترز عن
سريره حيًا، ورجع إلى أهله وبقي وولد
له، وبنيت العاشر أحيأها وولدت بعد ذلك،
فقالوا إنك تحيي من كان قريب العهد من
الموت فلعلهم لم يموتوا بل أصابهم
سكتة، فأحي لنا سام بن نوح، فقال: دلوني
على قبره، ففعلوا فقام على قبره، فدعا الله
عز وجل، فقام من قبره وقد شاب رأسه،
فقال عليه السلام: كيف شبت ولم يكن في
زمانكم شيب؟ قال: يا روح الله، لما دعوتني
سمعت صوتًا يقول أجب روح الله، فظننت

أن الساعة قد قامت، فمن هول ذلك شبت،
فسأله عن النزاع، قال: يا روح الله، إن مرارته
لم تذهب من حنجرتي، وكان بينه وبين
موته أكثر من أربعة آلاف سنة، وقال للقوم:
صدقوه فإنه نبي الله، فأمن به بعضهم وكذبه
آخرون فقالوا هذا سحر»^(٢).

«وروي في إحيائه الموتى أنه كان
يضرب بعصاه الميت أو القبر أو الجمجمة،
فيحيي الإنسان ويكلمه، وروي أنه أحيأ سام
بن نوح عليه السلام، وروي أن الذي كان
يحييه كانت تدوم حياته، وروي أنه كان يعود
لموته سريعًا، وفي قصص الإحياء أحاديث
كثيرة لا يوقف على صحتها، وإحياء الموتى
هي آيته المعجزة المعرضة للتحدي، وهي
بالمعنى متحدى بها وإن كان لم ينص على
التحدي بها، وآيات عيسى عليه السلام إنما
تجري فيما يعارض الطب لأن علم الطب
كان شرف الناس في ذلك الزمان وشغلهم
وحينئذ أثرت فيه العجائب، فلما جاء عيسى
عليه السلام بغرائب لا تقتضيها الأمزجة
وأصول الطب، وذلك إحياء الموتى وإبراء
الأكمه والأبرص علمت الأطباء أن هذه
القوة من عند الله، وهذا كأمر السحرة
مع موسى، والفصحاء مع محمد عليه
السلام»^(٣).

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٣٩ / ٢.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤٤٠ / ١.

(١) التحرير والتنوير ٢٥٢ / ٣.

٦. قصة أصحاب الكهف.

وقال الطبري: «وأما الكهف، فإنه كهف الجبل الذي أوى إليه القوم الذين قص الله شأنهم في هذه السورة، وأما الرقيم، فإن أهل التأويل اختلفوا في المعنى به، فقال بعضهم: هو اسم قرية، أو واد على اختلاف بينهم في ذلك»^(١).

ثم ذكر قصتهم مجملة، وفصلها بعد ذلك فقال: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ﴾ أي: الشباب، يريدون بذلك التحصن والتحرز من فتنة قومهم لهم، ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي تثبتنا بها وتحفظنا من الشر، وتوفقنا للخير ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي: يسر لنا كل سبب موصل إلى الرشd، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق، فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقبض لهم ما لم يكن في حسابهم، قال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ﴾ أي أنمناهم ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ وهي ثلاث مائة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظ لهم من قومهم وليكون

ومن الوقائع التي تشهد على إمكان البعث بعد الموت قصة أولئك الفتية الذين آووا إلى الكهف وكان من أمرهم ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾^(١) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا^(٢) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا^(٣) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا^(٤) [الكهف: ٩ - ١٢].

قال ابن كثير: «هذا إخبار عن قصة أصحاب الكهف والرقيم على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ يعني: يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾ أي: ليس أمرهم عجيبا في قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف والرقيم كما قال ابن جريج عن مجاهد: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾ يقول: قد كان من آياتنا ما هو

(١) تفسير القرآن العظيم، ٥/١٣٨.

(٢) جامع البيان، ١٧/٦٠٢.

آية بيته، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَهُمْ﴾ أي: من نومهم ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحْصَى لِمَا لِيَئُوا أَمَدًا﴾ أي: لنعلم أيهم أحصى لمقدار مدتهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ [الكهف: ١٩].

وفي العلم بمقدار لبثهم، ضبط للحساب، ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته، فلو استمروا على نومهم، لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم^(١).

وقال القرطبي: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ عبارة عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم، وهذه من فصيحات القرآن التي أقرت العرب بالقصور عن الإتيان بمثله، قال الزجاج: أي منعناهم عن أن يسمعوا، لأن النائم إذا سمع انتبه، وقال ابن عباس: ضربنا على آذانهم بالنوم، أي سدنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها، وقيل: المعنى «فضربنا على آذانهم» أي فاستجبنا دعاءهم، وصرفنا عنهم شر قومهم، وأنمناهم، والمعنى كله متقارب^(٢).

وقد ذكر ابن الجوزي سبب بعثهم فقال: «فأما سبب بعث أصحاب الكهف من نومهم، فقال عكرمة: جاءت أمة مسلمة، وكان ملكهم مسلماً، فاختلفوا في الروح

والجسد، فقال قائل: يبعث الروح والجسد. وقال قائل: يبعث الروح وحده، والجسد تأكله الأرض فلا يكون شيئاً، فشق اختلافهم على الملك، فانطلق فلبس المسوح، وقعد على الرماد، ودعا الله أن يبعث لهم آية تبين لهم، فبعث الله أصحاب الكهف^(٣).

ويستفاد من ذلك أن الله ضرب على آذان هؤلاء الفتية في كهفهم حتى لا يفرغهم شيء ولا يوقظهم من سباتهم صوت إلى ما شاء الله، ثم بعثهم سبحانه بقدرته أي أيقظهم من نومهم لحكم عظيمة منها أن يعرف الناس قصتهم فيدركوا قدرته تعالى على البعث وليكون لهم في ذلك آية عليه، وأن من قدر على بعثهم بعد كل هذه السنين من نومهم مع حفظ أجسادهم من التلف والفساد قادر على أن يحييهم بعد موتهم وتحلل أجسادهم، فالنوم هو صورة صغرى للموت، إذ يتوفى الله فيه الأنفس كما في الموت، وقد صرح القرآن بذلك، وسيأتي تفصيله.

وكل هذه براهين واقعية وأدلة مشاهدة حسية على إمكان البعث بعد الموت ووقوعه بقدرة الله عز وجل على يد من شاء من عباده إظهاراً لقدرته سبحانه، ودليلاً على وقوع البعث يوم القيامة.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٧١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٦٣.

(٣) زاد المسير، ٣/ ٦٧.

خامساً: الاستدلال باليقظة بعد النوم:

من أعظم وأظهر الأدلة الحسية المشاهدة على إمكان البعث بعد الموت، تلك الحقيقة التي تقع لكل إنسان مرة على الأقل كل يوم وهي النوم واليقظة بعده، فالنوم ما هو إلا صورة مصغرة وحالة مؤقتة من الموت، ولهذا قالوا النوم موت أصغر، وقد بين الله في كتابه أن يقظة الإنسان بعد نومه وما يحدث في هذا النوم من تعطل الحواس جميعاً بحيث يصبح النائم في حالة تشبه الميت في بعض الأمور دليل على بعثه بعد موته الموتة الكبرى، وسمى النوم وفاة كما سمي الاستيقاظ منه بعثاً، وقد جاء هذا الاستدلال في أكثر من موضع من كتاب الله تعالى، من ذلك قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام: ٦٠].

قال أبو حيان في معنى الآية: «ذكر شيئاً محسوساً قاهراً للأنام وهو التوفي بالليل والبعث بالنهار وكلاهما ليس للإنسان فيه قدرة، بل هو أمرٌ يوقعه الله تعالى بالإنسان والتوفي عبارة في العرف عن الموت وهنا المعنى به النوم على سبيل المجاز للعلاقة التي بينه وبين الموت وهي زوال إحساسه ومعرفته وفكره، ولما كان التوفي المراد به

النوم سبباً للراحة أسنده تعالى إليه»^(١).

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «وأطلق التوفي على الموت؛ لأن الأرواح تقبض وتؤخذ أخذاً تاماً حتى لا يبقى لها تصرف في الأبدان، وأطلق على النوم في هذه الآية وفي آية الزمر التي نذكرها قريباً، فقال العلماء: إنه إطلاق مجازي مبني على تشبيه النوم بالموت لما بينهما من المشاركة في زوال إحساس الحواس والتمييز، وإنما جعلوه استعارة عن النوم بناءً على جعله حقيقة في الموت، وهو كذلك في العرف العام لا في أصل اللغة؛ يقولون توفي فلان - بالبناء للمفعول - بمعنى مات، وتوفاه الله بمعنى أماته، وما أعلم أن العرب استعملت التوفي في الموت، وإنما هو استعمال إسلامي مبني على الموت، يحصل بقبض الأنفس التي تحيا بها الناس»^(٢).

وقال ابن الجوزي: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ يريد به النوم، لأنه يقبض الأرواح عن التصرف، كما يقبض بالموت، وقال ابن عباس: يقبض أرواحكم في منامكم. و﴿جَرَحْتُمْ﴾: بمعنى كسبتم، ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾: أي: يوقظكم فيه، أي: في النهار، ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾: أي: لتبلغوا الأجل المسمى لانقطاع حياتكم،

(١) البحر المحيط ٤/ ٥٣٧.

(٢) تفسير المنار ٧/ ٣٩٨، ٣٩٩.

فدل باليقظة بعد النوم على البعث بعد الموت^(١).

وقال الرازي: «بين كمال قدرته بهذه الآية وهو كونه قادراً على نقل الذوات من الموت إلى الحياة ومن النوم إلى اليقظة واستقلاله بحفظها في جميع الأحوال وتديرها على أحسن الوجوه حالة النوم واليقظة»^(٢).

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ ثم إليه وحده يكون رجوعكم إذا انتهت آجالكم ومتم، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إذ يبعثكم من مراقد الموت كما كان يبعثكم من مضاجع النوم؛ لأنه عالمٌ بتلك الأعمال كلها فيذكركم بها، ويحاسبكم عليها، ويجزيكم بها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفيه تنبيه على أن القادر على البعث من توفي النوم قادرٌ على البعث من توفي الموت^(٣).

وكذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِنْهُ أَلَمٌ لِّقَضَائِهَا عَلَيْهَا الْمَوْتُ وَرُسُلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

قال ابن كثير: «قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان،

والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾ ﴿١١﴾ [الأنعام: ٦٠-٦١].

فذكر الوفاتين: الصغرى ثم الكبرى، وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى^(٤). وقال القرطبي: «وقال ابن زيد: النوم وفاةٌ والموت وفاةٌ.. وقال عمر: النوم أخو الموت»^(٥).

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث جابر بن عبد الله قيل: يا رسول الله أينام أهل الجنة؟ قال: (النوم أخو الموت ولا ينام أهل الجنة)^(٦).

قال ابن العربي: «خلق الله للعبد النوم، ليعلم به كيفية الانتقال من حال إلى حال، وصفة الخروج من دار إلى دار، فإنه موت

(٤) تفسير القرآن العظيم، ١٠١/٧.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، ٢٦١/١٥.

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط رقم ٩١٩، والبيهقي في شعب الإيمان، باب تعدد نعم الله عز وجل وما يجب من شكرها، فصل في النوم الذي هو نعمة من نعم الله في دار الدنيا وما جاء في آدابه، رقم ٤٤١٦.

وقال الألباني في السلسلة الصحيحة ١٦١/٣،

رقم ١٠٨٧: صحيح من بعض طرقه عن جابر.

(١) زاد المسير ٣٨/٢.

(٢) مفاتيح الغيب ١٣/١٢.

(٣) تفسير المنار، ٤٠٠/٧.

وأرساله بعد نفس هذا ترجع إلى جسمها، وحسبه لغيرها عن جسمها لعبرة وعظة لمن تفكر وتدبر، وبيانا له أن الله يحيي من يشاء من خلقه إذا شاء، ويميت من شاء إذا شاء»^(٣).

«وقال مقاتل: لعلامات لقوم يتفكرون في أمر البعث، يعني أن توفي نفس النائم وإرسالها بعد التوفي دليل على البعث»^(٤).

تأكيد مبدأ البعث بالقسم الرباني:

يأتي القسم لتأكيد الخبر لمنكره، وقد أمر الصادق صلى الله عليه وسلم أن يقسم على قضية البعث تأكيدا لها في وجه من كذبه وأنكروها، وهو الذي لم يجربوا عليه كذبا قط باعترافهم، وقسمه عليها رغم أنها من الغيب، حيث لم يعاين أمر البعث لأن إخبار الله له به أشد يقينا في قلبه مما يشاهده بعينه.

قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

«يخبر تعالى عن عناد الكافرين، وزعمهم الباطل، وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فأمر أشرف خلقه، أن يقسم بربه على بعثهم، وجزائهم بأعمالهم الخبيثة، وتكذيبهم بالحق، ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فإنه وإن كان عسيرا

أصغر، وقد يقال بنظر آخر أنه يقظة صغرى، فإن نظرنا إليه من حيث عدم الحركة والحس والتصرف بالأفعال معه، قلنا هو موت لعدم ذلك كله به، وقد قال تعالى: ﴿يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وإن نظرنا إليه من حيث إنه انقطاع عن عالم التصرف الأدنى مع الآدميين والإكباب على الدنيا ومعانيها، وأنه إقبال على الملائكة المقربين، وتفرغ القلب لإدراك الحقائق بطريق الأمثال، وإطلاع على ما يكون غدا، رأينا أنه حياة صحيحة، ويقظة محققة بدلا عن موت مفقد، ونوم مفسد»^(١).

وقال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي: يقبض الأرواح حين موت أجسادها ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ﴾ أي: ويتوفى التي لم تمت في منامها. فيمسك أي: عن الجسد والنفس ﴿أَلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ﴾ إلى الجسد إلى أجل مسمى وهو انقضاء العمر ﴿إِنْ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في أمر البعث»^(٢).

وقال الطبري: «وقوله: ﴿إِنْ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: إن في قبض الله نفس النائم والميت

(١) قانون التأويل، ص ٤٦٩.

(٢) زاد المسير ٢٠/٤.

(٣) جامع البيان، ٢١/٢٩٩.

(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/٥٢٠.

بل متعذراً بالنسبة إلى الخلق، فإن قواهم كلهم، لو اجتمعت على إحياء ميت واحد، ما قدروا على ذلك»^(١).

«والمراد بالذين كفروا هنا المشركون من أهل مكة ومن على دينهم، واجتلاب حرف لن لتأكيد النفي فكانوا موقنين بانتفاء البعث، ولذلك جيء بإبطال زعمهم مؤكداً بالقسم لينقض نفياً بأشد منه، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يبلغهم عن الله أن البعث واقع وخاطبهم بذلك تسجيلاً عليهم أن لا يقولوا ما بلغناه ذلك، وجملة ﴿قُلْ بَلَى﴾ معترضة بين جملة ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجملة ﴿فَتَأْتُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ وحرف بلى حرف جواب للإبطال خاص بجواب الكلام المنفي لإبطاله»^(٢).

قال الرازي: ﴿بَلَى﴾ إثبات لما بعد أن وهو البعث وقيل: قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي﴾ يحتمل أن يكون تعليماً للرسول صلى الله عليه وسلم، أي يعلمه القسم تأكيداً لما كان يخبر عن البعث وكذلك جميع القسم في القرآن»^(٣).

«أي زعموا أن الشأن لن يبعثوا بعد موتهم ﴿قُلْ﴾ ردا عليهم وإظهاراً لبطلان زعمهم بإثبات ما نفوه بلى تبعثون، وأكد ذلك بالجملة القسمية فهي داخلة في حيز

الأمر، وكذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنُنَبِّئَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي لتحاسبين وتجزون بأعمالكم، وزيد ذلك لبيان تحقق أمر آخر متفرع على البعث منوط به ففيه أيضاً تأكيد له ﴿وَذَلِكَ﴾ أي ما ذكر من البعث والجزاء ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لتحقيق القدرة التامة وقبول المادة»^(٤).

«وجواب القسم لتبعثن، أي: لتخرجن من قبوركم لتنبؤن بما عملتم أي: لتخبرن بذلك إقامة للحجة عليكم، ثم تجزون به وذلك البعث والجزاء على الله يسيراً إذ الإعادة أيسر من الابتداء»^(٥).

ومثله قوله تعالى تأكيداً لأمر البعث بالقسم رداً على قولهم بإنكارها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مَقَالٌ ذَرَرَ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ أرادوا بضمير المتكلم جنس البشر قاطبة لا أنفسهم أو معاصريهم فقط كما أرادوا بنفي إتيانها نفي وجودها بالكلية لا عدم حضورها مع تحققها في نفس الأمر، وإنما عبروا عنه بذلك لأنهم كانوا يوعدون بإتيانها، ولأن وجود الأمور الزمانية المستقبلية لا سيما

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٦٦.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٨ / ٢٧١.

(٣) مفاتيح الغيب، ٣٠ / ٥٥٣.

(٤) روح المعاني، ١٤ / ٣١٧، ٣١٨.

(٥) فتح القدير، الشوكاني ٥ / ٢٨٢.

ومن القسم على وقوع البعث قوله تعالى:
﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (١) وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ
﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُجَمَعَ عَظَامُهُ﴾ (٢) بَلَى قَدِيرِينَ
عَلَى أَنْ تُسَوَّى بِنَافِهِ (٣) [القيامة: ١ - ٤].

«وصيغة لا أقسم صيغة قسم، أدخل حرف النفي على فعل أقسم لقصد المبالغة في تحقيق حرمة المقسم به بحيث يوهم للسامع أن المتكلم يهيم أن يقسم به ثم يترك القسم مخافة الحث بالمقسم به فيقول: لا أقسم به، أي ولا أقسم بأعز منه عندي، وذلك كناية عن تأكيد القسم» (٢).

«قوله عز وجل: ﴿لَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ قال الحسن: أقسم بالأولى ولم يقسم بالثانية. وقال قتادة: حكمها حكم الأولى، وفي «النفس اللوامة» ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها المذمومة، قاله ابن عباس. فعلى هذا: هي التي تلوم نفسها حين لا ينفعها اللوم.

والثاني: أنها النفس المؤمنة، قاله الحسن. قال: لا ترى المؤمن إلا يلوم نفسه على كل حال.

والثالث: أنها جميع النفوس. قال الفراء: ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها، إن كانت عملت خيراً قالت: هلا زدت. وإن كانت عملت سوءاً قالت: ليتني

أجزاء الزمان لا يكون إلا بالآتيان والحضور، وقيل هو استبطاء لإتيانها الموعود بطريق الهزء والسخرية كقولهم متى هذا الوعد، ﴿قُلْ بَلَى﴾ ردٌ لكلامهم وإثبات لما نفوه على معنى ليس الأمر إلا إتيانها، وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّي لَتَأْتِيََنَّكُمْ﴾ تأكيدٌ له على أتم الوجوه وأكملها، وقرئ (ليأتينكم) على تأويل الساعة باليوم أو الوقت، وقوله تعالى: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ الخ إمداد للتأكيد وتسديدٌ له إثر تسديد وكسر لسورة نكيرهم واستبعادهم، فإن تعقيب القسم بجلائل نعوت المقسم به على الإطلاق يؤذن بفخامة شأن المقسم عليه وقوة ثباته وصحته لما أن ذلك في حكم الاستشهاد على الأمر، ولا ريب في أن المستشهد به كلما كان أجل وأعلا كانت الشهادة أكد وأقوى، والمستشهد عليه أحق بالثبوت وأولى، لا سيما إذا خص بالذكر من النعوت ماله تعلقٌ خاصٌ بالمقسم عليه كما نحن فيه، فإن وصفه بعلم الغيب الذي أشهر أفرادَه وأدخلها في الخفاء هو المقسم عليه تنبيه لهم على علة الحكم، وكونه مما لا يحوم حوله شائبة ريبٍ ما، وفائدة الأمر بهذه المرتبة من اليمين أن لا يبقى للمعاندِين عذرٌ ما أصلاً، فإنهم كانوا يعرفون أمانته ونزاهته عن وصمة الكذب فضلاً عن اليمين الفاجرة، وإنما لم يصدقوه مكابرة» (١).

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/٣٣٨.

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/١٢١.

لم أفعل»^(١).

والأظهر هو القول الثاني، لأن الله تعالى أقسم بها، والقسم من الله تعظيم لشأن المقسم به وتنبه على مكانته، وهذا يليق بالنفس المؤمنة بخلاف النفس الفاجرة أو المذمومة، والله أعلم.

«وجواب القسم ما دل عليه قوله: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتَّخَذَ عِظَامُهُ﴾، وهو:

لتبعثن. انتهى، وهو تقدير النحاس. وقول من قال جواب القسم هو: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾. وما روي عن الحسن أن الجواب: ﴿لَنْ قَدِّرِينَ﴾، وما قيل أن لا في القسمين لنفيهما، أي لا أقسم على شيء، وأن التقدير: أسألك أيحسب الإنسان؟ أقوال لا تصلح أن يرد بها، بل تطرح ولا يسود بها الورق، ولولا أنهم سردوها في الكتب لم أنبه عليها، والإنسان هنا الكافر المكذب بالبعث»^(٢).

«وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ تقرير وتوبيخ، والإنسان اسم جنس وهذه أقوال كانت لكفار قريش فعلها هو الرد،.. وقال القتيبي: ﴿شَوَى بَنَانَهُ﴾ معناه نتقنها سوية، والبنان: الأصابع، فكان الكفار لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والإرمام، قيل لهم إنما تجمع ويسوى أكثرها تفرقا وأدقها أجزاء وهي عظام الأنامل ومفاصلها، وهذا

كله عند البعث، وقال ابن عباس وجمهور المفسرين: ﴿شَوَى بَنَانَهُ﴾ معناه نجعلها في حياته هذه بضعة أو عظما واحدا كخف البعير لا تفريق فيه، فكان المعنى قادرين في الدنيا على أن نجعلها دون تفرق، فتقل منفعة بيده، فكان التقدير بلى نحن أهل أن نجعلها قادرين على إزالة منفعة بيده، ففي هذا توعد ما»^(٣).

(١) زاد المسير ٤ / ٣٦٨

(٢) البحر المحيط ١٠ / ٣٤٤.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥ / ٤٠٢.

ولهذا عن السلف الصالح فيها تفسيران الأول معنى قول منكري البعث: ﴿تَمُوتُ وَيَحْيَا﴾ أي يموت الآباء ويحيا الأبناء هكذا أبداً، وهو قول الطائفة الأولى، والمعنى الثاني أنهم عنوا كونهم يموتون ويحيون هم أنفسهم، ويتكرر ذلك منهم أبداً ولا حساب ولا جزاء، بل ولا موجد ولا معدم، ولا محاسب ولا مجازي، وهذا قول الدورية.

الصف الثالث: الدهرية من مشركي العرب ومن وافقهم، وهم مقرون بالبداة، وأن الله تعالى ربههم وخالقهم، ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. ومع هذا قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥].

فأقروا بالبداة والمبدئ، وأنكروا البعث والمعاد، وهم المذكورون في حديث أبي هريرة رضي الله عنه (وأما تكذيبه إياي فقله لن يعيدني كما بداني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته)^(١).

والصف الرابع: ملاحدة الجهمية ومن وافقهم، أقروا بمعادٍ ليس على ما في القرآن ولا فيما أخبرت به الرسل عن الله عز وجل، بل زعموا أن هذا العالم يعدم عدماً محضاً، وليس المعاد هو بل عالم آخر غيره، فحيثئذ تكون الأرض التي تحدث أخبارها وتخبر

(١) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٩١١٤.

وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

المنكرون للبعث بعد الموت ودوافعهم

رغم وضوح الأدلة والآيات لكل ذي قلب وعينين على إمكان البعث بعد الموت وأن الله قادر عليه، إلا أن فريقاً من الناس أنكروا البعث بعد الموت وكذبوا به وراحوا يلقون الشبه على استحالته، وهم في ذلك أصناف متعددة.

أولاً: أصناف المنكرين للبعث بعد الموت:

المنكرون للبعث بعد الموت يصنفون بحسب إنكارهم للمبدأ ولوجود الخالق أربعة أصناف:

الصف الأول: أنكروا المبدأ والمعاد، وزعموا أن الأكوان تتصرف بطبيعتها فتوجد وتعدم بأنفسها، ليس لها رب يتصرف فيها، إنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع، وهؤلاء هم جمهور الفلاسفة الدهرية والطبائعية.

والصف الثاني: من الدهرية طائفة يقال لهم الدورية، وهم منكرون للخالق أيضاً، ويعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلي ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا في المعقول، وكذبوا المنقول، قبحهم الله تعالى.

وهاتان الطائفتان يعمهم قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

بما عمل عليها من خير وشر ليست هي هذه، وتكون الأجساد التي تعذب وتجازى وتشهد على من عمل بها المعاصي ليست هي التي أعيدت بل هي غيرها، والأبدان التي تنعم في الجنة وتثاب ليست هي التي عملت الطاعة، ولا أنها تحولت من حال إلى حال، بل هي غيرها تبتدأ ابتداءً محضاً، فأنكروا معاد الأبدان، وزعموا أن المعاد بدءاً أخرى^(١).

أما من حيث الاختلاف في إنكار المعاد الجسماني أو الروحاني أو هما معا فالمنكرون للبعث المخالفون لما عليه الكتاب والسنة وإجماع أهل الملل على المعاد الروحاني والجسماني معا أصناف ثلاثة:

١. المنكرون للمعاد الروحاني فقط.

وهؤلاء يقولون بمادية الروح وأنها حالة في الجسم سارية فيه سريان الماء في العود الأخضر أو النار في الفحم، والإنسان عندهم روح وبدن وكلاهما جسم مادي.

وهؤلاء خلافتنا معهم بالأساس في حقيقة الروح، وأنها ليست مادية، بل هي خلق من خلق الله ليست بجسم ولكنها تحل في الأجسام كما يشاء الله.

أو نقول إن كانت تسميتهم للروح

(١) معارج القبول، حافظ حكيم، ٧٧٦/٢.

مادة تسمية اصطلاحية فلا مشاحة في الاصطلاح، وحيث لا يكونون منكرين لبعث الأرواح والأجسام.

٢. المنكرون للمعاد الجسماني فقط.

وهؤلاء من يطلقون عليهم الفلاسفة الإلهيين، ويتسبون إلى الإسلام رغم مخالفتهم لكثير من عقائده الأساسية ولما هو معلوم من الدين بالضرورة كالفارابي وابن سينا ومن سار على دربهم من المتكلمين والمشتغلين بالفلسفة، ويتلخص مذهبهم في قضية البعث أو المعاد أن الأجساد لا تحشر ولا تبعث، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية، ولعلمهم في مقالاتهم هذه متأثرين بأسانذتهم في هذا الاتجاه، الذين يمثلهم في الفكر اليوناني سقراط وأفلاطون وأرسطو، فهؤلاء جميعاً يرون أن النفس لها وجود متقدم على البدن، وأن البعث هو عودة الروح إلى عالمها بعد مفارقة البدن الذي هو من جملة المركبات التي مصيرها الانحلال والفناء.

وهذا شأن المنافقين الذين يظهرون الإسلام وتعظيم الرسل والانقياد للشرائع في الظاهر من المتفلسفة والمتصوفة ومن لف لفهم، وهم في الباطن كفار منكرون لما هو معلوم من الدين بالضرورة، يخلطون

عدم محض، وليس هناك يوم آخر يعاد فيه الإنسان فيحاسب على ما قدمت يداه، وما الأمر - في نظر هؤلاء - إلا أرحام تدفع وأرض تبلغ وما يهلكنا إلا الدهر، وهؤلاء من يسمون الدهرية والطبائية والطبيين، يقول رب العزة حاكياً مذهبهم ومبكتاً لهم: ﴿وَقَالُوا مَا فِي آلِ آدَمَ إِلَّا نَجَسٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُبَلِّغُكُمْ إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ويوجد لهم أشباه في العصر الحديث من الملحدين كالشيوعيين وسائر أصحاب المذاهب المادية الباطلة، والعقلانية الفاسدة، الذين لا يتبعون الرسل ولا يدينون بالآديان والشرائع، وإنما يتبعون أهواءهم ويستندون إلى العقل ويرفضون الوحي الإلهي، وأولئك كفار خارجون عن الملل كلها، متفق على كفرهم بين جميع أصحاب الشرائع والديانات.

ثانياً: أسباب إنكار البعث:

١. الاستدلال العقلي الخاطئ.

من أسباب إنكار البعث عند هؤلاء المنكرين للبعث هو اعتمادهم على بعض شبه العقلية، والاستدلال العقلي الخاطئ. وأعظم شبهة لدى المنكرين للبعث هي استبعاد إعادة الأجسام بعد تمزقها، وتفتتها، ثم اختلاطها بأجزاء الأرض، إذ

تعاليم الرسل بقول الصابئة والمجوس وغيرهم من المشركين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأما المنافقون من هذه الأمة الذين لا يقرون بألفاظ القرآن والسنة المشهورة فإنهم يحرفون الكلام عن مواضعه، ويقولون: هذه أمثال ضربت لفهم المعاد الروحاني، وهؤلاء مثل القرامطة الباطنية الذين قولهم مؤلف من قول المجوس والصابئة، ومثل المتفلسفة الصابئة المنتسبين إلى الإسلام، وطائفة ممن ضاهوهم: من كاتب، أو متطبب، أو متكلم، أو متصوف، كأصحاب رسائل «إخوان الصفا» وغيرهم، أو منافق، وهؤلاء كلهم كفار يجب قتلهم باتفاق أهل الإيمان»^(١).

٣. المنكرون للمعاد الجسماني والروحاني معاً.

وهؤلاء هم من يسمون الفلاسفة الطبيعيين، وقد فسر هؤلاء الفلاسفة الإنسان تفسيراً مادياً بحثاً وينكرون كل ما وراء الحس والتجربة المادية، لذا فإنهم يرفضون أن تكون الطبيعة الإنسانية مشتملة على نفس تغاير في طبيعتها المادية المحسوسة وصفاتها، ومن هنا أجمع القدماء منهم والمحدثون على إنكار عقيدة البعث بعد الموت، لأن الموت عندهم

(١) مجموع الفتاوى، ٤/ ٣١٤.

تصبح متصورة بصورة التراب، فكيف يمكن إعادتها إلى حالتها التي كانت عليها من قبل؟!

هذا أمر غريب على عقول المنكرين، وعجيب في نفس الوقت عندهم، والحديث عنه خرافة، والمتحدث به، إما مفتر على الله الكذب، وإما مجنون سلب عقله، فخيّل له جنونه ذلك الحديث وأجراه على لسانه.

وقد عبر شاعرهم عن ذلك الإنكار، مبيّناً أن الحديث عنه خرافة بقوله^(١):

حياة ثم موت ثم نشر

حديث خرافة يا أم عمرو

وقال آخر^(٢):

أبوعدني ابن كبشة أن سنجيا

وكيف حياة أصداء وهام

ويقول الحق جل شأنه، مخبراً عن ذلك

الجحود العنيد والإنكار الشديد، ونسبتهم

إلى قائله الجنون، أو الكذب والافتراء

على الله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نُنَبِّئُكَ عَلَى

رَجُلٍ يَنْبِئُكُمْ إِذَا مَرَّفْتُمْ كُلٌّ مِّنْكُمْ لَنُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْخَلْقِ

أَن تَكُونُوا فِي أَرْحَامِكُمْ أَمْ أَجْنُونٌ مُّجْرِبُونَ ۚ﴾

﴿٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ

الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ

﴿٨﴾ [سبأ: ٧ - ٨].

«أي هل نرشدكم إلى رجل ينبئكم،

أي يقول لكم: إنكم تبعثون بعد البلى في القبور، وهذا صادرٌ عن فرط إنكارهم»^(٣).

«يعنون بذلك الرجل، رسول الله

صلّى الله عليه وسلم، وأنه رجل أتى بما

يستغرب منه، حتى صار - بزعمهم - فرجة

يتفرجون عليه، وأعجوبة يسخرون منه، وأنه

كيف يقول إنكم مبعوثون بعدما مزقكم

البلى، وتفرقت أوصالكم، واضمحلت

أعضاؤكم؟!»^(٤).

ثم إنه تعالى أجابهم مرةً أخرى وقال:

بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب في

مقابلة قولهم: ﴿أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وقوله:

﴿وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ في مقابلة قولهم: ﴿بِهِ

جِنَّةٌ﴾ وكلاهما مناسبٌ. أما العذاب فلأن

نسبة الكذب إلى الصادق مؤذنةٌ، لأنه شهادةٌ

عليه بأنه يستحق العذاب فجعل العذاب

عليهم حيث نسبوه إلى الكذب. وأما

الجنون فلأن نسبة الجنون إلى العاقل دونه

في الإيذاء، لأنه لا يشهد عليه بأنه يعذب،

ولكن ينسبه إلى عدم الهداية فيبين أنهم هم

الضالون، ثم وصف ضلالهم بالبعد، لأن

من يسمي المهتدي ضالاً يكون هو الضال،

فمن يسمي الهادي ضالاً يكون أضل،

والنبي عليه الصلاة والسلام كان هادي كل

مهتد»^(٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/٢٦٢.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٦٧٥.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥/١٩٥.

(١) نسبة الثعالبي في ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ١٣٠ إلى ابن الزبيري.

(٢) نسبة الأبيشي في المستطرف في كل نفس مستطرف ص ٤٦٧ إلى الأسود بن يعفر.

[١ - ٣].

«قوله تعالى: ﴿بَلْ يَحِبُّوْنَ أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي إنهم لم يستنكروا أصل الإرسال إليهم، وإنما أنكروا كون المرسل بشراً مثلهم يندرهم عذاب يوم القيامة وهم لا يؤمنون بالبعث الآخر فلذا قالوا ما أخبر تعالى به عنهم وقوله ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ أي بالبعث ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي أمر يدعو إلى التعجب إذ من مات وصار تراباً لا يعقل أن يبعث مرة أخرى فيسأل ويحاسب ويجزي وقد أفصحوا عن معتقدهم بقولهم ﴿أَوَلَوْذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ ذلك الرجوع إلى الحياة رجوع بعيد التحقيق» (٢).

«الواقع أنهم يعبرون بذلك عن أنفسهم، ويستبعدون البعث ووقوعه ظناً منهم أن قدرة الله تشبه قدرتهم، فقاوسوا قدرة الله على قدرتهم، وقياس الغائب على الشاهد باطل في نظر العقلاء، ولذلك صور الله عز وجل هذا الظن الخاطيء في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَشَقَّ خَلْقَهُ﴾ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

ولذا فقد استعظمت عقولهم هذا الأمر، وجعلته في حكم المستحيل، وإلا فلو نظروا بغير هذه النظرة القاصرة، وتأملوا في أنفسهم في مبدأ خلقهم، وفيما بين أيديهم من الآيات الدالة على القدرة الإلهية التي لا

«ثم ذكرهم بتلك الأدلة فقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نُخِيفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمُ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنبِئٍ﴾ [سبأ: ٨ - ٩].

أي: دلالة واضحة على قدرة الله، فكيف يستبعد عليه إعادة تلك الأجسام الضعيفة بعد تفرقها، وهو القادر على خلق هذه الآيات العظيمة، من السماء والأرض، ذلك هو دليل البعث؛ لأنه يدل على كمال القدرة، ومن المقدور عليه إعادة خلق الإنسان وإيجاده مرة أخرى.

وقد قرن هذا الدليل بالتهديد حيث قال: ﴿إِنْ نَشَأْ نُخِيفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمُ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾.

ثم بين تعالى أن المنتفع بتلك الآيات كل من يرجع إلى ربه، ويتوب إليه، لا من يتمادى في عناده وتعصبه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنبِئٍ﴾ (١).

ويقول الله تعالى حاكياً عن المشركين استبعادهم وقوع البعث بعد الموت، وعدم إمكانه، وتعجبهم من شأنه وشأن القائل به: ﴿قَدْ أَفْرَأْنِ الْمَجِيدِ﴾ (١) ﴿بَلْ يَحِبُّوْنَ أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (٢) ﴿أَوَلَوْذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ١٠].

(١) مسلك القرآن الكريم في إثبات البعث، علي الفقيه، ص ٦٨.

(٢) أيسر التفاسير، الجزائري، ١٣٧/٥.

يعجزها شيء متى ما أرادته لما صدر منهم هذا القول المنكر»^(١).

وقد رد على قولهم ذلك بقوله سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَفِظٌ ۚ﴾^(٢) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ ﴿٥﴾ [ق: ٤ - ٥]

«رد لقولهم: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]. فإن إحالتهم البعث ناشئة عن عدة شبه منها: أن تفرق أجزاء الأجساد في مناحي الأرض ومهاب الرياح لا تبقي أملاً في إمكان جمعها، إذ لا يحيط بها محيطٌ، وأنها لو علمت مواقعها لتعذر التقاطها وجمعها، ولو جمعت كيف تعود إلى صورها التي كانت مشكلةً بها، وأنها لو عادت كيف تعود إليها، فاقصر في إقلاع شبههم على إقلاع أصلها وهو عدم العلم بمواقع تلك الأجزاء وذراتها.. والمعنى: أن جمع أجزاء الأجسام ممكنٌ لا يعزب عن علم الله، وإذا كان عالمًا بتلك الأجزاء كما هو مقتضى عموم العلم الإلهي وكان قد أراد إحياء أصحابها كما أخبر به، فلا يعظم على قدرته جمعها وتركيبها أجسامًا كأجسام أصحابها حين فارقوا الحياة»^(٢).

وهذا من الإعجاز فقد رد على تلك الشبه

المتعددة والاحتمالات الكثيرة برد موجز مفحم، فالذي خلقها عالم بمحل كل جزء منها بعد تفرقها، لا يعزب عنه منها شيء، وهو قادر على إعادة تركيبها كما كانت، كما ابتداء خلقها أول مرة.

«فقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ إيماءٌ إلى دليل الإمكان، لأن مرجعه إلى عموم العلم كما قلنا، فأساس مبنى الرد هو عموم علم الله تعالى، لأن يجمع إبطال الاحتمالات التي تنشأ عن شبهتهم، فلو قال: نحن قادرون على إرجاع ما تنقص الأرض منهم لخطر في وسوس نفوسهم شبهة أن الله وإن سلمنا أنه قادرٌ فإن أجزاء الأجساد إذا تفرقت لا يعلمها الله حتى تتسلط على جمعها قدرته، فكان البناء على عموم العلم أقطع لاحتمالاتهم، واعلم أن هذا الكلام بيانٌ للإمكان رعيًا لما تضمنه كلامهم من الإحالة، لأن ثبوت الإمكان يقلع اعتقاد الاستحالة من نفوسهم، وهو كافٍ لإبطال تكذيبهم، ولا استدعائهم للنظر في الدعوة، ثم يبقى النظر في كيفية الإعادة، وهي أمرٌ لم نكلف بالبحث عنه»^(٣).

«وبعد أن بين الله لهم شمول علمه، وإحاطته بالجزئيات والكلييات - إذ إن العالم بجزئيات الأشياء لا تخفى عليه كلياتها - بين لهم سبب اضطرابهم في أمر البعث وأنه

(١) مسلك القرآن الكريم في إثبات البعث، علي الفقيهي، ص ٦٩.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٦/ ٢٨٠ - ٢٨١

(٣) المصدر السابق.

وصار عدماً محضاً ونفيّاً صرفاً، فإنه بعد هذا العدم الصرف لا يعود بعينه بل العائد يكون شيئاً آخر غيره. وهذا القسم واليمين إشارة إلى أنهم كانوا يدعون العلم الضروري بأن عوده بعينه بعد عدمه محالٌ في بديهة العقل: وأقسموا بالله جهد أيمانهم على أنهم يجحدون في قلوبهم وعقولهم هذا العلم الضروري^(٣).

وقال الألوسي: «وهو مبني على أن الميت يعدم ويفنى وأن البعث إعادة له وأنه يستحيل إعادة المعدوم، وقد ذهب إلى هذه الاستحالة الفلاسفة ولم يوافقهم في دعوى ذلك أحد من المتكلمين إلا الكرامية وأبو الحسين البصري من المعتزلة، واحتجوا عليها بما رده المحققون، وبعضهم ادعى الضرورة في ذلك وأن ما يذكر في بيانه تنبيهات عليه^(٤)».

وتقرير هذه الشبهة كما قال الرازي: «أن الإنسان ليس إلا هذه البينة المخصوصة، فإذا مات وتفرقت أجزاؤه وبطل ذلك المزاج والاعتدال امتنع عوده بعينه، لأن الشيء إذا عدم فقد فني ولم يبق له ذاتٌ ولا حقيقة بعد فناءه وعدمه، فالذي يعود يجب أن يكون شيئاً مغايراً للأول فلا يكون عينه^(٥)».

«فقال تعالى مكذباً لهم وردا عليهم:

تكذيبهم للحق الذي جاءهم من خالقهم، إذ الإخبار عنه حق، والمخير به صادق، قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي مضطرب غير مستقر^(١).

٢. شبهة عدم عودة الموتى إلى الحياة والرد عليها.

كان من بين الشبه التي أثارها المشركون على إنكارهم للبعث ما حكاه القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِمْ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣٨) يُسَبِّحُ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ^(٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(٤٠) [النحل: ٣٨-٤٠].

وهذا «انتقالٌ لحكاية مقالةٍ أخرى من شنيع مقالاتهم في كفرهم، واستدلالٌ من أدلة تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يخبر به إظهاراً لدعوته في مظهر المحال، وذلك إنكارهم الحياة الثانية والبعث بعد الموت^(٢)».

«قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ معناه أنهم كانوا يدعون العلم الضروري بأن الشيء إذا فني

(١) مسلك القرآن الكريم في إثبات البعث، علي الفقيهي، ص ٧١.
(٢) التحرير والتنوير ١٤/ ١٥٣.

(٣) مفاتيح الغيب ٢٠/ ٢٠٦، ٢٠٧.
(٤) روح المعاني، الألوسي ٧/ ٣٨٠.
(٥) مفاتيح الغيب، ٢٠/ ٢٠٦.

﴿بَلَىٰ﴾ أي: بلى سيكون ذلك، ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: لابد منه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر.

ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: ﴿لَسِبَ لَّهُمْ﴾ أي: للناس ﴿الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: من كل شيء، و﴿يَجْزَى الَّذِينَ اسْتَوْا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنِ﴾ [النجم: ٣١]. ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ أي: في إيمانهم وأقسامهم: لا يبعث الله من يموت^(١).

قال الرازي: «ثم إنه تعالى بين أن القول بالبعث ممكن ويدل عليه وجهان:

الوجه الأول: أنه وعدٌ حقٌّ على الله تعالى، فوجب تحقيقه، ثم بين السبب الذي لأجله كان وعدًا حقًا على الله تعالى، وهو التمييز بين المطيع وبين العاصي، وبين المحق والمبطل، وبين الظالم والمظلوم، وهو قوله: ﴿لَسِبَ لَّهُمَّ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

والوجه الثاني: في بيان إمكان الحشر والنشر أن كونه تعالى موجبًا للأشياء ومكونًا لها لا يتوقف على سبق مادة ولا مدة ولا آلة، وهو تعالى إنما يكونها بمحض قدرته ومشيتته، وليس لقدرته دافعٌ ولا لمشيته

مانعٌ فعبّر تعالى عن هذا النفاذ الخالي عن المعارض بقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وإذا كان كذلك، فكما أنه تعالى قدر على الإيجاد في الابتداء وجب أن يكون قادرًا عليه في الإعادة، فثبت بهذين الدليلين القاطعين أن القول بالحشر والنشر والبعث والقيامة حق وصدق^(٢).

وقد ذكر الله تعالى قولهم باستحالة البعث بعد الموت في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا يَمَثَلُ مَا قَالِ الْأَوَّلُونَ﴾ (٨١) ﴿قَالُوا أَوَآدًا يَنْتَابُ وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوَآدًا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (٨٢) ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٨٣). [المؤمنون: ٨١ - ٨٣].

قال محمد الأمين الشنقيطي: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن الكفار المنكرين للبعث قالوا: إنهم وعدوا بالبعث، ووعد به آباؤهم من قبلهم، والظاهر أنهم يعنون أجدادهم، الذين جاءتهم الرسل، وأخبرتهم بأنهم يبعثون بعد الموت للحساب والجزاء، وقالوا: إن البعث الذي وعدوا به هم وآباؤهم كذبٌ لا حقيقة له، وأنه ما هو ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما سطره وكتبه من الأباطيل والترهات، والأساطير: جمع أسطورة، وقيل: جمع أسطورة، وهذا الذي ذكره عنهم من إنكارهم البعث ذكر

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥٧١/٤.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٠/٢٠٧.

أجسامهم بل ذلك وعدٌ قديمٌ وعد به آبائهم الأولون وقد مضت أزمانٌ وشوهدت رفاتهم في أجدانهم وما بعث أحدٌ منهم، وجملة ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ من القول الأول، وهي مستأنفة استئنافاً بيانياً لجواب سؤالٍ يثيره قولهم ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ وهو أن يقول سائلٌ: فكيف تمالاً على هذه الدعوى العدد من الدعاة في عصورٍ مختلفةٍ مع تحققهم عدم وقوعه؟ فيجيبون بأن هذا الشيء تلقفوه عن بعض الأولين فتناقلوه»^(٢).

وقد أفحمهم القرآن بالجواب، قال الخازن: «قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد لأهل مكة ﴿لَمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ من الخلق ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي خالقها ومالكها؟ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي لا بد لهم من ذلك لأنهم يقرون أنها مخلوقة لله ﴿قُلْ﴾ أي قل لهم يا محمد إذا أقروا بذلك ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي فتعلموا أن من قدر على خلق الأرض ومن فيها ابتداء يقدر على إحيائهم بعد الموت»^(٣).

وقد عرض القرآن مقالتهم بإنكار البعث، وادعاءهم استمرار الحياة الدنيا، وقدم العالم، وأنها ما هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع، وأنهم لا حجة لهم في مواجهة الآيات

مثله في سورة النمل في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَيْتًا لَمُخْرِجُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ [النمل: ٦٧-٦٨].

ثم إنه تعالى أقام البرهان على البعث، الذي أنكروه في هذه الآية بقوله: ﴿قُلْ لَمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنِّي تُسْخَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩]؛ لأن من له الأرض، ومن فيها، ومن هو رب السماوات السبع، ورب العرش العظيم، ومن بيده ملكوت كل شيء، وهو يجبر ولا يجار عليه، لا شك أنه قادرٌ على بعث الناس بعد الموت»^(١).

قال ابن عاشور: «فالمقصود منه حكاية دعوى البعث بأن الرسول الذي يدعيها بتحقيقٍ وتوكيدٍ مع كونها شديدة الاستحالة، ففي حكاية توكيد مدعيها زيادةً في تفضيع الدعوى في وهمهم، وجملة لقد وعدنا إلخ تعليلٌ للإنكار وتقويةٌ له. وقد جعلوا مستند تكذيبهم بالبعث أنه تكرر الوعد به في أزمانٍ متعددةٍ فلم يقع ولم يبعث واحدٌ من آبائهم، ووجه ذكر الآباء دفع ما عسى أن يقول لهم قائلٌ: إنكم تبعثون قبل أن تصيروا تراباً وعظاماً، فأعدوا الجواب بأن الوعد بالبعث لم يكن مقتصرًا عليهم فيقعوا في شكٍ باحتمال وقوعه بهم بعد موتهم وقبل فناء

(٢) التحرير والتنوير، ١٨/١٠٧.

(٣) لباب التأويل، الخازن، ٣/٢٧٥.

(١) أضواء البيان، ٥/٣٤٨، ٣٨٥.

واضحة الدلالة على أمر البعث بعد الموت إلا طلبهم بأسلوب يملؤه الصلف والتحدي والعناد بعث آبائهم الأولين في هذه الحياة الدنيا.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۚ﴾ (٢٤) ﴿وَإِذَا نُنْفَخُ النَّفْسَ مِنْكُمْ فَإِنَّمَا تَذَكَّرُونَ ۚ﴾ (٢٥) [الجاثية: ٢٤ - ٢٥].

«أي وقال منكرو البعث والجزاء يوم القيامة ما هناك إلا حياتنا هذه التي نحياها وليس وراءها حياة أخرى، إننا نموت ونحيا أي نموت نحن الأحياء ويحيى أبناؤنا من بعدنا، وهكذا تستمر الحياة أبدًا يموت الكبار ويحيى الصغار، وما يهلكنا إلا الدهر أي وما يميتنا ويفينا إلا مرور الزمان وطول الأعمار، وهو إلحاد كامل وإنكار للخالق عز وجل، وهو تناقض منهم لأنهم إذا سئلوا من خلقهم يقولون الله، فينسبون إليه الخلق، وهو أصعب ولا ينسبون إليه الإمامة وهي أهون من الخلق، فرد تعالى عليهم مذهبهم «الدهري» بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي ليس لهم على معتقدهم هذا أدنى علم نقلًا كان ولا عقليًا، أي يتلقوه عن وحي أوحاه الله إلى من شاء من عباده، ولا عن عقل سليم راجح لا ينقض حكمه، كالواحد مع الواحد اثنان، والأبيض خلاف

الأسود، وما إلى ذلك من القضايا العقلية التي لا ترد، فهؤلاء الدهريون ليس لهم شيء من ذلك، ما لهم إلا الظن والخرص، وقضايا العقيدة لا تكون بالظن، والظن أكذب الحديث» (١).

﴿وَإِذَا نُنْفَخُ النَّفْسَ مِنْكُمْ فَإِنَّمَا تَذَكَّرُونَ ۚ﴾ أي بأن الله باعث خلقه يوم القيامة ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بأبائنا إن كنتم صادقين أي انشروهم أحياء، حتى نصدق ببعثنا أحياء بعد مماتنا، وإطلاق الحجة على ذلك، إما حقيقة بناء على زعمهم، فإنهم ساقوه مساق الحجة، أو هو مجاز تهكما بهم. كأنه قيل: ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة. بمعنى أن لا حجة لهم البتة، وفيه مبالغة لتنزيل التضاد منزلة التجانس» (٢).

قال الرازي: «واعلم أن هذه الشبهة ضعيفة جدًا، لأنه ليس كل ما لا يحصل في الحال وجب أن يكون ممتنع الحصول، فإن حصول كل واحد منا كان معدومًا من الأزل إلى الوقت الذي حصلنا فيه، ولو كان عدم الحصول في وقت معين يدل على امتناع الحصول لكان عدم حصولنا كذلك، وذلك باطل بالاتفاق» (٣).

وقد رد عليهم القرآن العظيم بقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْعَلُكُمْ لِكُلِّ

(١) أيسر التفاسير، الجزائري ٣٧/٥.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي، ٨/ ٤٣٣.

(٣) مفاتيح الغيب ٢٧/ ٦٧٩.

شهوات الحياة الدنيا؛ فهم يخشون تبعات الإيمان بالبعث، والانقياد للدين الذي يحجزهم عن شهواتهم، ويحول دونهم ودون أهوائهم، وقد سجل القرآن ذلك وبين سوء حالهم ومآلهم في قول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (٧) أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ [يونس: ٧ - ٨].

قال ابن عاشور: «هذا استئناف وعيد للذين لم يؤمنوا بالبعث ولا فكروا في الحياة الآخرة ولم ينظروا في الآيات نشأ عن الاستدلال على ما كفروا به من ذلك جمعاً بين الاستدلال المناسب لأهل العقول وبين الوعيد المناسب للمعرضين عن الحق إشارة إلى أن هؤلاء لا تنفعهم الأدلة وإنما يتنفع بها الذين يعلمون ويتقنون وأما هؤلاء فهم سادرون في غلوائهم حتى يلاقوا العذاب، وإذ قد تقرر الرجوع إليه للجزاء تأتي الوعيد لمنكري البعث الذين لا يرجون لقاء ربهم والمصير إليه» (٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ بيان لمآل أمر من كفر بالبعث وأعرض عن البينات الدالة عليه بعد تحقيق أن مرجع الكل إليه تعالى، وأنه يعيدهم بعد بدئهم للجزاء ثواباً وعقاباً، وتفصيل بعض الآيات

يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا رَبَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ [الجاثية: ٣٦]

﴿قُلِ اللَّهُ يَجْمَعُ﴾ ابتداء ﴿ثُمَّ يُنْشِئُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم على ما دل عليه الحجج لا الدهر كما تزعمون ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي فيه وجوز كون الفعل مضمناً معنى مبعوثين أو متهين ونحوه ومعنى في أظهر أي يجمعكم في يوم القيامة ﴿لَا رَبَّ فِيهِ﴾ أي في جمعكم فإن من قدر على البدء وقدر على الإعادة والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لا محالة في ذلك اليوم والوعد الصدق بالآيات دل على قرعها، وحاصله أن البعث أمر ممكن أخبر به الصادق وتقتضيه الحكمة وكل ما هو كذلك لا محالة واقع والإتيان بالأباء حيث كان منافياً للحكمة التشريعية امتنع إيقاعه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استدراك من قوله تعالى: ﴿لَا رَبَّ فِيهِ﴾ وهو من تمام الكلام المأمور به أو كلام مسوق من جهته تعالى تحقيقاً للحق وتنبيهاً على أن ارتيابهم لجهلهم وقصورهم في النظر والتفكير لا لأن فيه شائبة ريب ما» (١).

٣. استمرار الملذات في الحياة الدنيا وعدم الرغبة في التذكير بمفارقتها.
ومن أسباب رفض أولئك المنكرين للبعث وبذل كل جهد في إنكاره أنهم ألفوا

(٢) التحرير والتنوير، ٩٨/١١.

(١) روح المعاني، الألوسي، ١٥٢/١٣.

الشاهدة بذلك، والمراد بلفظاته إما الرجوع إليه تعالى بالبعث، أو لقاء الحساب، كما في قوله عز وجل ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ [الحاقة: ٢٠] (١).

«وفي الآية إشارة إلى أن البهجة بالحياة الدنيا والرضى بها يكون مقدار التوغل فيهما بمقدار ما يصرف عن الاستعداد إلى الحياة الآخرة. وليس ذلك بمقتضى الإعراض عن الحياة الدنيا فإن الله أنعم على عباده بنعم كثيرة فيها وجب الاعتراف بفضلها بها وشكره عليها والتعرف بها إلى مراتب أعلى هي مراتب حياة أخرى والتزود لها. وفي ذلك مقامات ودرجات بمقدار ما تهيأت له النفوس العالية من لذات الكمالات الروحية، وأعلاها مقام قول النبي صلى الله عليه وسلم (فقلت مالي وللدنيا)» (٢) (٣).

«قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها، حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأترون بها، بأن مأواهم يوم معادهم النار، جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم

الآخر» (٤).

وقد ضرب الله المثل بهذا الكافر صاحب الجنتين الذي اغتر بجنتيه وما كان من صنوف النعم فيهما فقال ما حكاه القرآن: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۖ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ۖ﴾ [الكهف: ٣٥ - ٣٦].

«يقول تعالى ذكره: هذا الذي جعلنا له جنتين من أعناب ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ وهي بستانه ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ وظلمه نفسه: كفره بالبعث، وشكه في قيام الساعة، ونسيانه المعاد إلى الله تعالى، فأوجب لها بذلك سخط الله وأليم عقابه» (٥).

«ثم حكى تعالى عن الكافر أنه قال: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۖ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ فجمع بين هذين، فالأول قطعه بأن تلك الأشياء لا تهلك ولا تبید هذه أبدًا مع أنها متغيرة متبدلة، فإن قيل: هب أنه شك في القيامة فكيف قال: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ مع أن الحدس يدل على أن أحوال الدنيا بأسرها ذاهبة باطلة غير باقية؟ قلنا: المراد أنها لا تبید مدة حياته ووجوده» (٦).

قال ابن عطية: «و«ظلمه لنفسه»: كفره وعقائده الفاسدة في الشك في البعث، فقد

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٤٩.

(٥) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٢.

(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٦٣.

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ١٢٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة باب هدية ما يكره لبسه، رقم ٢٤٧١ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) التحرير والتنوير ١١/ ٩٩.

قال الرازي: «ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ تُجِئْتُمُ الْإِنِّ رَقِيَّ إِنِّ لِي عِنْدَهُمُ الْحُسْنَى﴾ [فصلت: ٥٠].

وقوله: ﴿لَا أُوتِيكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧].

والسبب في وقوع هذه الشبهة: أنه تعالى لما أعطاه المال في الدنيا ظن أنه إنما أعطاه ذلك لكونه مستحقاً له، والاستحقاق باقٍ بعد الموت فوجب حصول العطاء، والمقدمة الأولى كاذبة فإن فتح باب الدنيا على الإنسان يكون في أكثر الأمر للاستدراج والتلمية، والمقصود عود الكناية إلى الجنتين، والباقون منها، والمقصود عود الكناية إلى الجنة التي دخلها^(٣).

وفي قوله هذا ذكر السعدي احتمالين ثم رجح أحدهما على الآخر فقال: «وهذا لا يخلو من أمرين: إما أن يكون عالماً بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء فيكون زيادة كفر إلى كفره، وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، وأبخسهم حظاً من العقل، فأى: تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهله أن من أعطي في الدنيا أعطي في الآخرة، بل الغالب، أن الله تعالى يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه الذين ليس لهم في الآخرة

نص على ذلك قتادة وابن زيد، وفي شكه في حديث العالم إن كانت إشارته بهذه إلى الهيئة من السماوات والأرض وأنواع المخلوقات، وإن كانت إشارته إلى جتته فقط، فإنما في الكلام تساخف واغترار مفرط وقلة تحصيل، وكأنه من شدة العجب بل والسرور أفرط في وصفها بهذا القول ثم قاس أيضاً الآخرة على الدنيا، وظن أنه لم يمل له في دنياه إلا لكرامة يستوجبها في نفسه، قال: فإن كان ثم رجوع كما يزعم فستكون حالي كذا وكذا^(١).

قال الطبري: «وقوله: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ يقول جل ثناؤه: قال لما عاين جتته، ورآها وما فيها من الأشجار والثمار والزروع والأنهار المطردة شكا في المعاد إلى الله: ما أظن أن تبید هذه الجنة أبداً، ولا تفنى ولا تخرب، وما أظن الساعة التي وعد الله خلقه الحشر فيها تقوم فتحدث، ثم تمنى أمنية أخرى على شك منه، فقال: ﴿وَلَيْنَ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي﴾ فرجعت إليه، وهو غير موقن أنه راجع إليه ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ يقول: لأجدن خيراً من جتتي هذه عند الله إن رددت إليه مرجعاً ومرداً، يقول: لم يعطني هذه الجنة في الدنيا إلا ولي عنده أفضل منها في المعاد إن رددت إليه^(٢).

(١) المحرر الوجيز، ٣/ ٥١٧.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٢٢.

(٣) مفاتيح الغيب، ٢١/ ٤٦٣ - ٤٦٤.

نصيب، والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال، ولكنه قال هذا الكلام، على وجه التهكم والاستهزاء، بدليل قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾. فإثبات أن وصفه الظلم، في حال دخوله، الذي جرى منه، من القول ما جرى، يدل على تمرده وعناده^(١).

٤. الهروب من تصور الحساب والعذاب.

من الدوافع التي تكمن وراء إنكار هؤلاء المكذبين بالبعث ذلك الخوف الكامن من تصور أنهم بعد البعث محاسبون ومجازون بأعمالهم التي عملوها في حياتهم الدنيا، فكلما تصوروا ذلك الأمر رفضوا تصديقه واستبعدوه حذرا من وقوعه بالفعل فهم لا يتصورون أن يحاسبوا على ما جنوه من الجرائم والشنائع التي يخشون مغبة الحساب عليها والمعاقبة بها، لذا فهم يعبرون عن إنكارهم للبعث باستبعادهم للحساب والجزاء في الآخرة، وقد عبر القرآن عن ذلك من خلال ذلك المشهد الأخروي الذي يجري لأهل الجنة وهم يتذاكرون بعض ما كان في الدنيا من حوار بين بعضهم وبين مكذبي البعث.

قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ٥١ يَقُولُ أَهَؤُلَاءِ لِمَ الْمُصَدِّقِينَ ٥٢ أَهَذَا مِنَّا وَكُنَّا

تَرَابًا وَعِظْلًا ٥٣ أَلَمْ يَدِينُوا ٥٤﴾ [الصفافات: ٥٠ - ٥٣].

«والمعنى: أهل الجنة يسأل بعضهم بعضاً عن حاله في الدنيا، قوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أي في الدنيا ينكر البعث، و﴿يَقُولُ أَهَؤُلَاءِ لِمَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ أي كان يوبخني على التصديق بالبعث والقيامة ويقول تعجباً: ﴿أَهَذَا مِنَّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْلًا ٥٣ أَلَمْ يَدِينُوا ٥٤﴾ أي لمحاسبون ومجازون، والمعنى أن ذلك القرين كان يقول هذه الكلمات على سبيل الاستنكار^(٢).

«والمدين: المجازي يقال: دانه يدينه، إذا جزاه، والأكثر استعماله في الجزاء على السوء، والدين: الجزاء كما في سورة الفاتحة^(٣).

ومما يدل على ذلك قوله تعالى في سبب إنكار منكر البعث: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرْ أَمَامَهُ ٥٥﴾ [القيامة: ٥ - ٦]. وقوله ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرْ أَمَامَهُ﴾ أي ما يجهل الإنسان قدرة خالقه على إعادة خلقه، ولكنه يريد أن يواصل فجوره مستقبلاً كله فلا يتوب من ذنوبه ولا يؤوب من معاصيه لأن شهواته مستحكمة فيه.

وقوله تعالى: ﴿سَتَلَأْنُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يخبر تعالى عن المنكر للبعث من أجل مواصلة

(٢) الباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦ / ٣٠٥.

(٣) التحرير والتنوير، ٢٣ / ١١٦.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٧٧.

أمله ومسوفا بتوبته، قاله مجاهد والحسن وعكرمة وابن جبير والضحاك والسدي.

وقال السدي: المعنى ليظلم على قدر طاقته.

وقال الضحاك: المعنى يركب رأسه في طلب الدنيا دائماً.

وقوله تعالى: ﴿لَيَفْجُرْ أَمَامَهُ﴾ تقديره لكن يفجر، وقال ابن عباس ما يقتضي أن الضمير في أمامه عائد على يوم القيامة، والمعنى أن الإنسان هو في زمن وجوده أمام يوم القيامة وبين يديه، ويوم القيامة خلفه فهو يريد شهواته ليفجر في تكذيبه بالبعث وغير ذلك بين يدي يوم القيامة، وهو لا يعرف قدر الضرر الذي هو فيه^(٤).

قال الألوسي: «وفيها إيماء إلى أن ذلك الإنسان عالم بوقوع الحشر ولكنه متغاب، واعتبر الدوام في ﴿لَيَفْجُرْ﴾ لأنه خبر عن حال الفاجر بأنه يريد ليفجر في المستقبل على أن حسبانته وإرادته هما عين الفجور، وقيل لأن ﴿أَمَامَهُ﴾ ظرف مكان استعير هنا للزمان المستقبل فيفيد الاستمرار، وفي إعادة المظهر ثانياً ما لا يخفى من التهديد والنعي على قبيح ما ارتكبه، وأن الإنسانية تأبى هذا الحسبان والإرادة وعود ضمير أمامه على هذا المظهر هو الأظهر»^(٥).

الفجور من زنا وشرب خمر بأنه يقول أياں يوم القيامة استبعاداً واستنكاراً^(١).

وقال ابن الجوزي: «قوله عز وجل: ﴿يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرْ أَمَامَهُ﴾ فيه قولان:

أحدهما: يكذب بما أمامه من البعث والحساب، قاله ابن عباس.

والثاني: يقدم الذنب ويؤخر التوبة، ويقول: سوف أتوب، قاله سعيد بن جبير. فعلى هذا: يكون المراد بالإنسان: المسلم. وعلى الأول: الكافر.

وقوله عز وجل: ﴿يَسْتَلْ أَتَىٰ نَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: متى هو؟ تكذيباً به، وهذا هو الكافر^(٢).

وذكر ابن كثير أن ابن زيد رجح القول الأول فقال: «وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هو الكافر يكذب بيوم الحساب. وكذا قال ابن زيد، وهذا هو الأظهر من المراد؛ ولهذا قال بعده ﴿يَسْتَلْ أَتَىٰ نَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾؟ أي: يقول متى يكون يوم القيامة؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه، وتكذيب لوجوده»^(٣).

وقال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرْ أَمَامَهُ﴾ قال بعض المتأولين:

الضمير في أمامه عائد على الإنسان، ومعنى الآية أن الإنسان إنما يريد شهواته ومعاصيه ليمضي فيها أبداً قدماً راکب رأسه ومطيع

(١) أيسر التفاسير، الجزائري، ٤٧٥/٥.

(٢) زاد المسير ٣٦٩/٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٢٧٦/٨، ٢٧٧.

(٤) المحرر الوجيز، ٤٠٢/٥-٤٠٣.

(٥) روح المعاني، ١٥٣/١٥.

آثار الإيمان بالبعث

هناك ثمرات وآثار تظهر على المؤمن بالبعث قولاً وفعلًا وحالًا وسلوكًا، منها ما يكون في الدنيا، ومنها ما يكون في الآخرة.

أولاً: في الحياة الدنيا:

للإيمان بالبعث آثار على حياة المؤمن في الحياة الدنيا، ومن هذه الآثار:

١. عدم الركون إلى الدنيا وملذاتها. من ثمار الإيمان بالبعث بعد الموت الإقبال على الله وعلى الدار الآخرة، والإعراض عن الدنيا وزيتها وشهواتها، والتخفف منها، والقناعة باليسير من متاعها في حدود ما أحل الله، فتجد المؤمن الحق يعلم أنها ظل زائل وعرض حائل، فلا يغمس في شهواتها، ولا يركن إليها، وهؤلاء هم الفائزون يوم القيامة بالنعيم المقيم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: تلك الدار الآخرة نجعل نعيمها للذين لا يريدون تكبرا عن الحق في الأرض وتجبرا عنه ولا فسادا. يقول: ولا ظلم الناس بغير حق، وعملا بمعاصي الله فيها»^(١).

وقال القرطبي: «قال أبو معاوية: الذي لا يريد علوًا هو من لم يجزع من ذلها. ولم ينافس في عزها، وأرفعهم عند الله أشدهم تواضعًا، وأعزهم غداً ألزمهم للذل اليوم. وروى سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد قال: مر علي بن الحسين وهو راكبٌ على مساكين يأكلون كسرًا لهم، فسلم عليهم فدعوه إلى طعامهم، فتلا هذه الآية: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣].

ثم نزل وأكل معهم، ثم قال: قد أجبتكم فأجيوني. فحملهم إلى منزله فاطعمهم وكساهم وصرفهم. خرج أبو القاسم الطبراني سليمان بن أحمد قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال حدثني أبي، قال حدثنا سفيان بن عيينة. فذكره. وقيل: لفظ الدار الآخرة يشمل الثواب والعقاب. والمراد إنما يتنفع بتلك الدار من اتقى، ومن لم يتق تلك الدار عليه لا له، لأنها تضرة ولا تنفعه»^(٢).

وذلك لأنهم يخافون من مغبة يوم البعث وأهواله ويعدون له ويتخففون من شهوات الدنيا لما يجدونه في أنفسهم من الخوف من هذا اليوم واليقين بوقوعه.

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَذُرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝١٧ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ٣٢٠.

(١) جامع البيان، ١٩/ ٦٣٧.

يعتريه»^(٢).

٢. السعي الحثيث للأخرى.

فإن الإيمان بالبعث من أكبر الدواعي والدوافع للمرء على السعي الحثيث نحو الآخرة بكثرة العمل الصالح والاستعداد لها بالمسارعة في الخيرات.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ٧ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ٨ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ٩ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أُنْهِمَ إِلَيْ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ١٠ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا شَاقِقُونَ ١١﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١].

قال الطبري: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ يقول: خائفة من أنهم إلى ربهم راجعون، فلا ينجيهم ما فعلوا من ذلك من عذاب الله، فهم خائفون من المرجع إلى الله.. وقوله: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين هذه الصفات صفاتهم، يبادرون في الأعمال الصالحة، ويطلبون الزلفة عند الله بطاعته»^(٣).

وقال الخازن: «قال الحسن: عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم، وعن عائشة قالت: (قلت يا رسول الله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هم الذين يشربون الخمر ويسرقون قال لا

وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ» [الشورى: ١٧ - ١٨].

قال الألوسي: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استعجال إنكار واستهزاء، كانوا يقولون: متى هي ليبتها قامت حتى يظهر لنا أهو الذي نحن عليه أم كالذي عليه محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي خائفون منها مع اعتناء بها فإن الإشفاق عناية مختلطة بخوف، فإذا عدي بمن كما هنا، فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عدي بعلی فمعنى العناية أظهر، وعنايتهم بها لتوقع الثواب، وزعم الجلي أن الآية من الاحتباك والأصل يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها فلا يشفقون منها والذين آمنوا مشفقون منها فلا يستعجلون بها، ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الأمر المتحقق الكائن لا محالة»^(١).

وقال السعدي: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ عنادا وتكديبا، وتعجيزا لربهم، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون، لإيمانهم بها، وعلمهم بما تشتمل عليه من الجزاء بالأعمال، وخوفهم، لمعرفةهم بربهم، أن لا تكون أعمالهم منجية لهم ولا مسعدة، ولهذا قال: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه، ولا شك

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٧٥٦.

(٣) جامع البيان، ١٩ / ٤٤ - ٤٥.

(١) روح المعاني ٢٧ / ١٣.

يا بنت الصديق ولكن هم الذين يصومون ويتصدقون ويخافون أن لا يقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات^(١)، وقوله: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي يبادرون إلى الأعمال الصالحة ﴿وَهُمْ لَهَا سَاهُونَ﴾ أي إليها، وقال ابن عباس: سبقت لهم من الله السعادة، وقيل: سبقوا الأمم إلى الخيرات^(٢).

وقال ابن عاشور: «ومعنى وهم لها سابقون أنهم يتنافسون في الإكثار من أعمال الخير، فالسبق تمثيلٌ للتنافس والتفاوت في الإكثار من الخيرات بحال السابق إلى الغاية، أو المعنى وهم محرزون لما حرصوا عليهم، فالسبق مجازٌ لإحراز المطلوب لأن الإحراز من لوازم سبق^(٣)».

٣. محاسبة النفس.

إن من أيقن بالبعث بعد الموت وما يقع له بعده من الحساب والثواب أو العقاب جدير به أن يحاسب نفسه قبل المثل بين يدي ربه للحساب وأن يلوم نفسه على التقصير والتفريط فيكون ذلك دافعا له إلى التوبة من ذنوبه وغدراته وغفلاته، فيحسن عمله ويتقي ربه في كل حركاته وسكناته،

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب سورة المؤمنون، رقم ٣١٧٥.

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/٣٠٤، رقم ١٦٢.

(٢) لباب التأويل، ٣/٢٧٣.

(٣) التحرير والتنوير، ١٨/٧٨.

كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّوَا اللَّهَ وَلَنُنْظُرَ نَفْسًا مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

قال أبو السعود: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّوَا اللَّهَ﴾ أي في كل ما تأتون وما تذرّون ﴿وَلَنُنْظُرَ نَفْسًا مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي: أي شئ قدمت من الأعمال ليوم القيامة عبر عنه بذلك لدنوه أو لأن الدنيا كيوم والآخرة غده وتنكيره لتفخيمه وتهويله كأنه قيل لغد لا يعرف كنهه لغاية عظمه وأما تنكير نفس فلاستقلال الأنفس النواظر فيما قدم من لذلك اليوم الهائل كأنه قيل ولتنظر نفس واحدة ذلك ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تكريرٌ للتأكيد أو الأول في أداء الواجبات كما يشعر به ما بعده من الأمر بالعمل وهذا في ترك المحارم كما يؤذن به الوعيد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي من المعاصي^(٤).

وقال السعدي: «يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبهم الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه، سرا وعلانية، في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم، واهتموا بالمقام بها، اجتهدوا في

(٤) إرشاد العقل السليم ٨/٢٣٢.

أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ [الانشقاق: ٦-٩].

«قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ﴾ أي يا ابن آدم ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا﴾ أي أنك عامل تعمل يوميا ليل ونهار إلى أن تموت وتلقى ربك إنك لا تبرح تعمل لا محالة وتكسب بجوارحك الخير والشر إلى الموت حيث تنتقل إلى الدار الآخرة وتلقى ربك وتلاقيه هذا يشهد له قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الصحيح (كلكم يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها) ^(٢) إذا فمن الخير لك أيها الإنسان المكلف أن تعمل خيرا تلاقى به ربك فيرضى عنك به ويكرمك إنك حقا ملاق ربك بعملك فأنصح لك أن يكون عملك صالحا وانظر إلى الصورة التالية ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ لأنه حوى الخير ولا شر فيه ﴿فَسَوْفَ يَحْصِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ينظر في كتابه ويقرر هل فعلت كذا فيعترف ويتجاوز عنه وينقلب إلى أهله في الجنة وهم الحور العين والنساء المؤمنات والذرية الصالحة يجمعهم الله ببعضهم كرامة لهم» ^(٣).

٢. ثقل الموازين.

فإن من آمنوا بالبعث بعد الموت يثقل الله

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم ٥٥٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ «كل الناس يغدو».

(٣) أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٥٤٣

كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتهما من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضا، أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه ولا يهملها، أوجب لهم الجهد والاجتهاد، وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدوها، فإن رأى زللا تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصرا في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياة بلا محالة» ^(١).

ثالثا: في الآخرة:

أما في الآخرة فإن ثمار الإيمان باليوم الآخر والبعث بعد الموت أحلى وأفضل وهي كثيرة منها:

١. الحساب اليسير.

فإن من آمن باليوم الآخر وما فيه من بعث الأجساد من أجدائها وأعد له عدته فإن الله ييمن كتابه ويسر حسابه يوم القيامة قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَلْيَقِهِ﴾ ^(١) ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ^(٢) ﴿فَسَوْفَ يَحْصِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ^(٣) وَيَنْقَلِبُ إِلَيْكَ

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٥٣

موازينهم يوم القيامة، وينجيهم من العذاب، ويكرمهم بدخول الجنة، قال تعالى: ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «والوزن في ذلك اليوم الذي يسأل الله فيه الرسل والأمم، ويقص عليهم كل ما كان منهم، هو الحق الذي تحقق به الأمور وتعرف به حقيقة كل أحد وما يستحقه من الثواب والعقاب.. ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قيل: إن الموازين جمع ميزان فهي متعددة لكل امرئ ميزان وقيل: لكل عمل. والجمهور على أن الميزان واحد وأنه يجمع باعتبار المحاسبين وهم الناس أو على حد قول العرب: سافر فلان على البغال وإن ركب بغلاً واحداً، وقيل: إن الموازين جمع موزون، والمعنى فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرة حسناته فأولئك هم الفائزون بالنجاة من العذاب والنعيم في دار الثواب»^(١).

وقال القاسمي: «والوزن يومئذ الحق أي: وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها، يوم يسأل الله الأمم ورسولهم، العدل. فمن ثقلت موازينه أي: حسناته في الميزان فأولئك هم المفلحون أي: الناجون

من السخط والعذاب»^(٢).

٣. جنات الخلد.

فإن المؤمنين بالبعث بعد الموت هم الفائزون بجنات الخلد يوم القيامة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُعِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [٢] وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مِمَّا آتَيْنَاهُمْ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ فَيَذَلُّهُ فَرِيقٌ هُمُ يُؤْمِنُونَ [٣] أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [٤] [البقرة: ٣ - ٥].

«حقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر. إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به، لخبر الله وخبر رسوله. فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق مجرد لله ورسوله. فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده، أو لم يشاهده وسواء فهمه وعقله، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه. بخلاف الزنادقة والمكذبيين بالأمور الغيبية، لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ففسدت عقولهم، ومرجت أحلامهم. وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله، ويدخل في الإيمان بالغيب، الإيمان بجميع ما أخبر الله

(٢) محاسن التأويل ٦/٥.

(١) تفسير المنار، ٨/ ٢٨٣.

الثاني: يجعل عملهم هادياً لهم إلى الجنة، وهذا معنى قول ابن جريج.

الثالث: أن الله يهديهم إلى طريق الجنة.

الرابع: أنه وصفهم بالهداية على طريق المدح لهم. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: من تحت منازلهم، قاله أبو مالك.

الثاني: تجري بين أيديهم وهم يرونها من علو، لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ فِي مُلْكِ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِ﴾ [الزخرف:

٥١]. يعني بين يدي، وحكى أبو عبيدة عن مسروق أن أنهار الجنة تجري في غير أخذود^(٣).

قال الشوكاني: «قوله: ﴿دَعَوْنَهُمْ﴾ أي: دعاؤهم ونداؤهم، وقيل: الدعاء العبادي، كقوله تعالى: ﴿وَأَعَزَّلَكُمْ وَمَا نَدَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨].

وقيل معنى دعواهم هنا: الادعاء الكائن بين المتخاصمين، والمعنى: أن أهل الجنة يدعون في الدنيا والآخرة تنزيه الله سبحانه من المعاييب والإقرار له بالإلهية. قال القفال: أصله من الدعاء، لأن الخصم يدعو خصمه إلى من يحكم بينهما، وقيل معناه: طريقتهم وسيرتهم، وذلك أن المدعي للشيء مواظب عليه فيمكن أن تجعل الدعوى كناية عن

به من الغيوب الماضية والمستقبلية، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفيةها، وما أخبرت به الرسل من ذلك فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتيقنونها، وإن لم يفهموا كيفيةها^(١).

«وأما معنى قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ فإن معنى ذلك: أنهم على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد، بتسديد الله إياهم، وتوفيقه لهم... ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي أولئك هم المنجحون المدركون ما طلبوا عند الله تعالى ذكره بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله، من الفوز بالثواب، والخلود في الجنان، والنجاة مما أعد الله تبارك وتعالى لأعدائه من العقاب^(٢)».

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَتَذَكَّرُونَ أَيْمَنِيهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۝ وَأَخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٩ - ١٠].

قال الماوردي: «قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَتَذَكَّرُونَ أَيْمَنِيهِمْ﴾ فيه أربعة أوجه:

أحدها: يجعل لهم نوراً يمشون به، قاله مجاهد.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٠.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١/ ٢٤٩.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٢٣.

الملازمة وإن لم يكن في قوله ﴿سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾ دعوى ولا دعاء وقيل معناه: تمنيه كقوله: ولهم ما يدعون وكان تمنيه في الجنة ليس إلا تسييح الله وتقديسه، وهو مبتدأ وخبره ﴿سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾، و﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة. والمعنى على القول الأول: أن دعاءهم الذي يدعون به في الجنة هو تسييح الله وتقديسه. والمعنى: نسبحك يا الله تسييحاً، قوله: ﴿وَنَحْمَدُكَ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي: تحية بعضهم للبعض، فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل، أو تحية الله، أو الملائكة لهم، فيكون من إضافة المصدر إلى المفعول.. قوله: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: وخاتمة دعائهم الذي هو التسييح أن يقولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

وقال السعدي: «يقول تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان، والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتمة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي: بسبب ما معهم من الإيمان، يهيمهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته،

ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم.

ولهذا قال: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الجارية على الدوام ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أضافها الله إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح والسرور، والبهجة والحبور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاعتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات المطربات، والنفحات المشجيات، والمناظر المفرحات، ونعيم البدن بأنواع المأكول والمشرب، والمناكح ونحو ذلك، مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي عبادتهم فيها لله، أولها تسييح لله وتزيره له عن النقائص، وآخرها تحميد لله، فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو ألد عليهم من المأكول اللذيذة، ألا وهو ذكر الله الذي تطمئن به القلوب، وتفرح به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النفس، من دون كلفة ومشقة.

وأما تحيتهم فيما بينهم عند التلاقي والتزاور، فهو السلام، أي: كلام سالم من اللغو والإثم، موصوف بأنه ﴿سَلَامٌ﴾ وقد قيل في تفسير قوله: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ﴾

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٨٦.

إلى آخر الآية: إن أهل الجنة - إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما - قالوا سبحانك اللهم، فأحضر لهم في الحال، فإذا فرغوا قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

موضوعات ذات صلة:

الثواب، الجزاء، الجنة، الحساب،
العذاب، الموت، النار، اليوم الآخر

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٥٨.

